قصص عالمية

ترجمها من الروسية والفرنسية

الدكتور حامد طاهر



تقـــديـــم

لو كنت أستطيع لقمت بترجمة مئات القصص القصيرة من الأدب العالمى إلى اللغة العربية . فأنا من أشد المتحمســـين إلـــى ضرورة تطعيم الآداب بعضها ببعض ، هذا التطعيم هو الذى يدفـــع الأدب القومى إلى مزيد من الازدهار،ولأن الأدب – كالعلم – ينبغى أن يتوزع عطاؤه على كل شعوب العالم . وتثبت التجارب أنه مـــا من أدب استقبل ثمار أدب آخر إلا ازداد بها قوة ، واندفـــع مـــن خلال الاطلاع عليها وهضمها إلى آفاق أخرى جديدة . .

ويحضرنى هنا أن نجيب محفوظ بدأ حياته الثقافية بترجمة كتاب عن مصر القديمة ، وعلى الرغم من أنه كتاب علمـــى فـــى مادته ومنهجه ، إلا أنه كان فاتحة خير للمترجم ، كى يكتب بعـــد ذلك ثلاث روايات عن الحياة المصرية القديمة هـــى : رادوبيـــس وعبث الأقدار وكفاح طيبة . النتائج إذن تخرج مـــن مقدماتـــها . ولن يبرز بيننا أديب مصرى أو عربى متميز دون أن يكـــون قـــد تزود بالكثير من الثقافة المحلية والعالمية . وكمـــا قيـــل بحـــق

إن " الأسد ليس إلا عدة خراف مهضومة "

لن يكون من العيب أن أذكر هنا قصتى مع اللغات الأجنبية التى تعلمتها ، وكانت أولاها الإنجليزية التى درستها على نحو هزيل دون أن أحقق فيها شيئاً يذكر . ولم يكن ذلك ذنبى ، وإنما ذنب المنهج المدرسى والجامعى العقيم الذى يجعل من اللغات الأجنبية مقرراً نظرياً ، يخلو من التدريب والممارسة ، ولذلك يخرج التلاميذ والطلاب دون أن يستطيعوا . . حتى محاورة زائر أجنبى ، أو دلالته على ما يمكن أن يراه من معالم سياحية فى بلاده.

ومع ذلك فقد ظللت أحاول – عبثاً – أن أجيد الإنجليزية، وأحسّن وسائلى فيها، لكن النتيجة توقفت عند قراءة بعض النصوص ، ومحاولات فاشلة لترجمة جزء من كتاب عن الفكر الإسلامى ، اكتشفت بعد فترة أنه مترجم بالفعل !

وحدث فى عام ١٩٧٠ أننى جندت بالجيش . وكان من حظى أن أقضى فترة التجنيد متعلماً ومترجماً اللغة الروسية . وفى فترة التعليم – التى كانت جادة جداً – درست لنا اللغة

أستاذة روسية ، كانت مثقفة للغاية اسمها " إليانـــا باريســـى " . وهى سيدة عجوز ، لكنها كانت على درجة عالية مـــن النشـــاط والاهتمام . وعندما وجدتنى مقبلاً علـــى تعلـــم اللغـــة الروســـية منحتنى اهتماماً خاصاً ، وحين علمتْ أننى شاعر ، أعارتنى مـــن مكتبتها الخاصة بعض كتب الأدب الروسى لبوشيكن وتشـــيكوف وغيرهما، كنت أقرأها بصعوبة ، ولكننـــى كنـــت أعجـــب كثـــيراً بمحتواها . .

فى تلك الأثناء أقبلتُ – فى فترة فراغى النســـبى – علـــى ترجمة بعض القصص القصيرة من الروسية مباشرة ، وهى (بنت القيصر ، جسر بتشوجين ، الطاقية الســـوداء ، كلمـــة شـــرف ، آستا . . مدرستى الجميلة) . . وقد كانت النية أن أســـتمر فـــى ترجمة العديد من القصص ، والقصائد الروسية الجميلة (التى لـــم أنشرها بعد) ، لكنْ حدث ما غيّر خططى تماماً . .

فى أواخر سنة ١٩٧٤ ، ســـافرت فـــى بعثـــة حكوميـــة للحصول على دكتوراه الدولة من جامعة الســـوربون بفرنســـا . وكانت مفاجأة كاملة . فأنا لا أعرف حرفاً من اللغة الفرنســـية . لكننى كنت دائماً توّاقاً إلى الرحلة إلى الغرب ، والتعرف المباشـــر

على حضارته التى قرأت عنها كثيراً . . وفى باريس ، بـــدأت رحلة شاقة مع اللغة الفرنسية ودراستها فى أكثر من مدرســـة فى وقت واحد ، حتى كانت فرحتى الكبرى عندما قـوأت – لأول مرة ودفعة واحدة – رواية الغريب لألبير كامى . . ولأن مـــن عادتى أن أقرأ بسرعة ، لذلك فإن الألـــم الـــذى عانيتـــه مـــن القراءة البطيئة بالفرنسية فى المراحـــل الأولـــى كـــان أكـــثر مما يحتمل . .

فى باريس قضيت ما يقرب من سبع سنوات ، متجـولاً فى مكتباتها ، قارئاً نهماً لكل ما كان يتيسر لى الاطلاع عليـه ، سواء فى المكتبة الوطنية ، أو مكتبة جامعة الســـوربون ، أو حتى مكتبات الحى اللاتينى المشهورة فى شارع سان ميشيل أو المنزوية فى الحارات الجانبية . . وميزة المكتبات التجارية فى باريس أنها تتيح لكل إنسان أن يسحب من فوق الرف الكتـــاب الذى يعجبه ويظل يقـــرأ فيـــه . . دون أن يزعجـــه البـــائع بالمتابعة أو الملاحقة أو التذمر ! ميزة أخرى ، أن القراء بعـد أن يشتروا الكتب وينتهوا من قراءتها يمكنهم أن يبيعوها مـــرة أخرى للمكتبة ، التى تضع فوقها خاتماً يدل علـــى أن الكتـــاب

مستعمل ، وهكذا يعاد بيعه - للقارئ البسيط من أمثالى - بسعر منخفض جداً ، ومن هذا الطريق ، اشتريت الكثير جداً من الكتب الهامة.

شعور غريب كان يخالجنى وأنا أعيش فى قلب حركة الطباعة والتأليف الفرنسية : وهو أنه لابد أن أنقل - أو ينقل غيرى من العرب- كل تلك المؤلفات أو معظمها إلى اللغة العربية ، نظراً لأهميتها البالغة ، سواء على مستوى الإبداع الأدبى والفكرى أو على مستوى الدراسات والبحوث الأكاديمية والثقافية . .

وفى بداية الثمانينيات ، عدت إلى القاهرة ، وأنا شديد الاقتناع بدور الترجمة العلمية والثقافية . فضلاً عن الجانب الأدبى . . لكننى وجدت الجو العلمى والثقافى منشغلاً بقضايا هامشية ، كما فوجئت بأن الترجمة لم يعد لها اعتبار يذكر فى الترقيات العلمية بالجامعة ، الأمر الذى أدى إلى انصراف أساتذة الجامعة عنها ، وذلك بالإضافة طبعاً إلى مكافأتها المادية المتدنية للغاية ، ونظرة الناشرين لها على أنها عمل لا يستحق عناء النشر ، لأن كتب التراث كانت هى التى تتصدر قائمة

الاهتمامات . .

وأذكر أننى كتبت مقالاً بعنوان " دور الترجمة فى الفكر العربى المعاصر " نشر فى سلسلة " دراسات عربية وإسلامية " - الجزء الثامن ، وحرصت على أن يكون هو موضوع أكثر من محاضرة ألقيتها فى أسبوع ثقافى بسلطنة عمان سنة ١٩٩٥. ثم أودعته فيما بعد كتاب " الدوائر المتداخلة " القاهرة ١٩٩٥ الذى يتحدث عن " تحقيق التراث ، والترجمة ، والتأليف " ، باعتبار الثلاثة ركائز لا غنى عنها فى أى حركة علمية أو ثقافية ناجحة.

وخلال تلك الفترة كنت أترجم من وقت لآخر قصيدة أو قصة أو مسرحية أو كتاباً من الفرنسية إلى اللغة العربية ، لكن الكثير من ذلك لم ينشر بعد ، وظل بين أوراقى ، لا تقع عينى عليه إلا تحسرت على حال الترجمة ، ومصير الأعمال التى تقدم صورة أخرى من العالم ، أو الحقيقة !

وفى لحظة تصميم أو فلنقل : لحظة تهور ! جمعت ما ترجمته من قصص قصيرة مترجمة عن الروسية ، إلى جانب مجموعة أخرى ترجمتها من الفرنسية ، بعضها منقول إليها

من التراث الألبانى ، الذى سوف يلاحظ القارئ العربى فيه مسحة من التراث الشعبى والصوفى (فاطمة ، الدب والدرويش، كيف سقط السروال من حسان) والبعض الآخر بقلم كتّاب فرنسيين مثل (الوظيفة السهلة ، وصفحة الوفيات ، مدينة وامرأة).

ثم . . ثم ألحقت بذلك كله قصة من تأليفى بعنوان (القرار) ، وأرجو ألا يظن بى كتّاب القصة أننى دخيل غريب عليهم ، فإن من يجاور الحدّاد يكتوى بناره - كما يقول المثل الشعبى المصرى .

وفى الختام ، أعتذر إذا لاحظ البعض أن إحدى هذه القصص قد ترجمت فى مكان آخر ، لأنها نتاج فترة طويلة ، ربما امتدت إلى ثلاثين عاماً ، ولم يتح لى خلالها أن أتابع (كل) ما يصدر فى الوطن العربى من أعمال أدبية مترجمة .

وإلى القارئ التحية ، ،

دكتور حامد طاهر

نوفمبر ٢٠٠٠



كلمــــة شـــرف

بقلم ل. بانتيليف
مترجمة من الروسية

يؤسفنى جداً أننى لا أستطيع أن أذكر لكـــم اســـم هـــذا الصبى الصغير ، وأين يعيش ، ومن هى أمه ، ومن هو أبوه ، لأننى فى الظلام لم أتمكن من رؤية وجهه . فقط أذكر أن أنفــه كان به بعض النمَش ، وأن بنطلونه كان قصيراً ، لـــم يثبــت بحزام ، وإنما بحمالة تنقلب من فوق الكتف ، وتزرر فى مكـان ما على البطن.

على نحو ما ، توجهت فى الصيــف إلـــى حديقـــة – لا أعرف كيف يسمونها – على جزيرة " فاسيليفسكى " بـــالقرب من كنسية بيضاء . وكان معى كتاب ممتع ، رحت أقرأ فيـــه ، ولم ألاحظ كيف حلّ المساء .

وعندما ضعفت عيناى من الزغللة ، أصبحت القراءة من الصعوبة بمكان ، أغلقت الكتاب ، ونهضت متجهاً للخروج . .

خلت الحديقة من الناس ، وفى ممراتها ، راحت المصابيح تشعّ من آن لآخر . ومن خلف الأشجار رن جرس الحارس . ولأننى خشيت أن تغلق الحديقة ، مشيت مسرعاً جداً . وفجأة توقفت . فقد وصل إلى سمعى من خلف بعض الشجيرات أن أحداً يبكى . .

انعطفت إلى جانب الطريق ، حيث لاح على البعد بيت صغير بلونه الأبيض وسط الظلام : بيت حراسة أو كُشك ، كذلك الذى يوجد فى كل حدائق المدن . وكان بقربه حائط ، وقف بجانبه فتى صغير ، لا يزيد عمره عن سبع أو ثمانى سنوات ، وهو مطاطئ الرأس ، وينتحب بشدة ، دون سلوى من أحد !

اتجهت إليه وناديته :

– أيها الصبى . . ماذا بك ؟

– لا شئ .

- كيف لا شئ . . من ضربك ؟

- لا أحد .

- ما الذى إذن يبكيك ؟

كان من الصعب أن يتكلم ، وكذلك أن يمسك بكل دموعه . وكان ينشج ويفوق (من الفواق : الزُغطّة) ، وينشق بأنفه!

- قلت له :

- هيا نمضى . . أنظر ، فقد صار الوقت متأخراً ، والحديقة تغلق . .

وأردت أن أجذبه من يده ، لكن الصبى سحب يده بدون حرج قائلاً :

- لا أستطيع

- ما الذى لا تستطيعه ؟

- لا أستطيع السير

- كيف ؟ لماذا ؟ ماذا بك ؟

- لا شئ

- هل أنت مريض ؟

- لا . . صحيح بصحة جيدة .

- إذن لماذا لا تستطيع السير ؟

- أنا حارس

- أى حارس ! أى حارس !

- ماذا أنت ؟ ألا تفهم ! نحن نلعب . .

- آه . . مع من تلعب ؟

سكت الصبى ، وبلع ريقه ، وقال :

- لا أعرف .

وهنا بدا لى أن الصبى ربما يكون مريضاً ، وأن فى رأسه خبالاً . قلت له :

- اصغ إلى . . ماذا تلعب ؟ وكيف كان ذلـــك ؟ تلعـــب . ، ولا

تعرف مع منْ ؟

– نعم ، لا أعرف . فقد كنت أجلس على دكة فـــى الحديقـــة وأقبل مجموعة كبيرة من الأولاد ، وقالوا : " هل تريـــد أن تلعب معنا لعبة الحرب ؟ " فقلت : " أريد " . ورحنا نلعب .

– قالوا لى : " أنت عرّيف " وكان هناك ولد كبير أرسلنى إلى هنا ، وقال : إن لدينا مستودع بارود فى هـــذا " الكشـــك " وستكون أنت حارسه . فابق هنا ، ولا تنصـــرف حتـــى لا أبدلك بشخص آخر قلت له : " حسناً " . قـــال : " أعطنـــى كلمة شرف على أنك لن تذهب " .

– هيــه . .

– قلت : " كلمة شرف : لن أذهب "

– وماذا بعد ؟

– ها أنا ما زلت واقفاً . . واقفاً ، وهم لا يأتون !

وابتسمت :

- حسناً . . وهم وضعوك هنا منذ وقت طويل ؟

- كان النهار لا يزال . .

- ولكن أين هم ؟

- أعتقد أنهم مضوا . .

- كيف مضوا ؟

- نسوا . .

- ولماذا تجلس إذن ؟

- لقد أعطيت كلمة شرف . .

أردت أن أبتسم ، لكننى تنبهت فجأة إلى أن الضحك فـى هذا الموقف لا يليق، وأن الصبى على حق تماماً . فما دام قد أعطى كلمة شرف ، عليه أن - يبقى مهما حدث - ولو على حياته ! ويستوى بعد ذلك أن يكون الأمر لعبة ، أو غير لعبة .

قلت له :

- إذا كان هذا قد حدث ، فماذا تصنع الآن ؟

قال الصبى ، وقد بدأ يبكى :

– لا أدرى

أردت أن أقدم له أية مساعدة ممكنة ، لكــن . . مــاذا أستطيع أن أفعل ؟ هل أذهــب للبحــث عــن أولئــك الأطفــال السخفاء، الذين وضعوه فى الحراسة ، آخذين منه كلمة شرف، وأسرعوا هم إلى منازلهم ؟ لكن أين أجد هؤلاء العفــاريت ؟ ! لا شك فى أنهم قد تناولوا عشاءهم ، وذهبوا إلـــى الفــراش، ورأوا عشرات الأحلام . أما الصبى ، فيجلس هنـــا الســاعات الطويلة ، فى الظلام ، وهو جائع حقاً ! وسألته :

– هل تريد أن تأكل ؟

– نعم . . أريد .

قلت بعد تفكير :

– حسناً ، أسرع أنت للمنزل لكى تتعشى ، وسأبقى أنا بــدلاً منك هنا .

وقال الصبى :

- نعم . . لكن هل هذا ممكن ؟

- ولماذا لا يمكن ؟

- إنك لست شخصاً عسكرياً

هرشت قفاى ، وقلت :

- صح . . لن تذهب . . حتى أنا لا أستطيع أن أكـــون بديلـــك. الذى يمكنه أن يقوم بهذا العمل شخص عسكرى . . قائد !

وفجأة قفزت إلى ذهنى فكرة طيبة ، واعتقـــدت أننـــى إذا حررت الصبى من كلمة الشرف ، فإننى أحـــرره مـــن الحراســـة أيضاً، هكذا ينبغى أن يكون العمل . لكن من الضـــرورى الذهـــاب للبحث عن شخص عسكرى.

لم أقل شيئاً للصبى . أبلغته فقط " انتظرْ لحظة " وأسرعت بنفسى إلى مكان الخروج .

لم تكن بوّابة الحديقة قد أغلقت بعد ، أما الحـــارس فقـــد ذهب إلى أقصى الحديقة، لكى يتصل من هناك بمركز حراسته .

وقفت بالقرب من البوابة ، ولم يمر بـــالقرب منـــى أى شخص عسكرى : أى ملازم ، أو حتى جندى مـــن الجيــش . وكما يبدو لم يكن فى الشارع أى شـــخص يرتـــدى الملابــس العسكرية.

فجأة ظهرت فى الجانب الآخر من الشارع مجموعة من المعاطف السوداء .

فرحت ، وظننت أصحابها بحارة عســـكريين ، لكننـــى عندما عبرت الشارع مسرعاً لم أجدهم بحارة ، وإنمـــا طــلاب صغار فى مدرسة صناعية. ومر رجل سكة حديد طويل القامـــة يرتدى معطفاً جميلاً جداً ، مزيناً بعلامة خضراء . لكن هل كان من الممكن لمثل هذا الرجل أن يقف ويستمع لى ؟ !

أردت أن أعود للحديقة ، وجهى مثل قفاى . لكنى فجأة، لمحت عند الناصية على محطة الترام " كاب " أحد القادة بإطــار أحمر . ويبدو أننى لم أفرح قط فى حياتى مثل فرحى فى تلـــك اللحظة . واندفعت نحوه بكل قوتى . لكننى مع الأسف لم ألحـق به، لأنه كان أسرع منى فى الصعود إلى " الترام " .

وقفت على المحطة ، إلى أن أقبل ضابط شـــاب ، برتبــة رائد، وكان يشق طريقه وسط الجمـــهور المتجمـــع حـــول بـــاب العربة. وأسرعت إليه ، ممسكاً بذارعه ، وصحت :

– رفيقى الرائد . . دقيقة واحدة . . انتظر . . رفيقى الرائد!

التفت إلى ناظراً باستغراب ، وقال :

– ماذا حدث ؟

– هل تنظر ماذا حدث ؟ هنا ، فى حديقة ، بالقرب من " كشك " حجرى ، يجلس طفل صغير منذ ساعات . . إنه لا يســـتطيع الخروج . فقد أعطى كلمة شرف . . إنه صغير جداً . . إنـــه يبكى . .

– قطب القائد عينيه ، ورنا إلىّ بدهشة أكبر . ربما ظـــن هـــو أيضاً أننى مريض ، وأن فى رأسى خبالاً . . لكنه قال :

– إننى هنا فى عمل ؟

لكن " الترام " كان قد فاته ، فنظر إلىّ بغيـــظ ، وانتـــهزت الفرصة فشرحت له القصة بوضوح أكثر ، وعندما فهمها لم يعـــد

يفكر ، وعلى الفور قال :

– فلنذهب . . لنذهب بالطبع . . لماذا لم تقل لى مباشرة ؟ !

وعندما توجهنا إلى الحديقة ، كان الحارس قد أغلق البوابة تماماً . وطلبت منه الانتظار عدة دقائق ، وقلت له إن فى الحديقة صبياً باقياً ، واندفعنا – الرائد وأنا – إلى داخل الحديقة .

وفى الظلام ، اكتشفنا بصعوبة البيت الصغير الأبيض ، كان الصبى واقفاً فى مكانه بالضبط ، حيث تركته . ومرة أخرى كان يبكى بهدوء شديد . ناديته ، ففرح جداً ، إلى حد أنه صرخ من الفرح . أما أنا فقلت :

– ها هو ذا . . قد أحضرت قائداً .

اعتدل الصبى فى وقفته ، ولكى يرى القائد بصورة أفضل، مدّ جسمه الصغير لأعلى عدة سنتيمترات . . وقال القائد :

– أيها الرفيق الحارس . . أى رتبة تحملها ؟

– أنا عريف

– رفيقى العريف . . آمرك بترك مركز حراستك ، الذى عُهد به إليك .

– سكت الصبى ، وحك أنفه ، ثم قال :

– وما هى رتبتك أنت . فأنا لا أرى تماماً عدد النجوم التى على كتفك ؟

–أنا رائد

عندئذ رفع الصبى يده مؤديا التحية العسكرية ، قائلاً :

– حاضر – رفيقى الرائد – بالأمر أترك نقطة الحراسة .

قال هذا بصوت مسموع ، وبمهارة بالغة إلى حد أننا لـــم نتمالك أنفسنا وانفجرنا فى الضحك . وابتســـم الصبـــى بســـرور وارتياح.

عدنا إلى باب الحديقة المغلق ، وانتظرنا عـــدة لحظـــات ، قبل أن يفتح الحارس لنا القفل المغلق .

ومدّ الرائد يده محيياً :

– ممتاز يا رفيقى العريف . منك يخرج المحارب الحقيقى . . إلى اللقاء !

وتمتم الصبى ببعض كلمات ، قائلاً :

" إلى اللقاء "

وتركنا الرائد ، مسرعاً إلى المحطة ، نحـــو " ترامـــه " الذى كان قادماً . أما أنا، فقد شددت على يد الصغير ، وسألته:

– هل يمكننى أن أوصلك ؟

– لا .. فإننى أسكن قريباً من هنا .. إننى لا أخاف .

ونظرت إلى أنفه الصغير ذى النمش ، واعتقدت حقاً أنه لا يخاف من شئ ، الصبى الذى لديه مثل تلك الإرادة القويـــة ، وهذه الكلمة المتينـــة ، لا يخشـــى الظـــلام ،ولا يخـــاف مـــن المجرمين ، ولا يرتجف من أكثر الأشياء رعباً .

وعندما يكبر . لا يعرف ماذا سيكون   عندما يكـــبر . .
على أى وضع كان ، فإن المضمون بالفعل أنه ســـيكون شـــخصاً
حقيقياً . .

هكذا فكرت وأنا أسير وحدى مسروراً من تعرفى على هذا الصبى
الذى أشد على يديه بقوة . . مرة أخرى !

جسر بيتشوجين

بقلم إ. بيرمياك

مترجمة من الروسية

فى الطريق إلى المدرسة ، تعوّد جماعة من التلاميـذ الحديـث عن المآثر .

قال الأول : ما أروع إنقاذ طفل من الحريق !

وتخيل الثانى : أروعُ منه اصطياد أكبر كركىّ . . على الفـور يعرفك الناس جميعاً.

وقال الثالث : أروعُ من هذا كله أول من يطير إلى القمر ، فـإن العالم كله سيعرف صاحبه !

لكن (بيتشوجين) لم يفكر فى شئ من هذا . فقـد كـان فتىً هادئاً ، صامتاً . ومثل باقى زملائه ، كان بيتشوجين يفضل الذهاب إلى المدرسة من طريق قصير عبر نهر صغـير عنـد

شاطئ شديد الانحدار . وكان عبوره وثباً من أصعب الأمور .

في العام الماضي ، لم يتمكن تلميذ صغير من القفز فسقط في الماء ، وما زال يرقد في المستشفى . وفي هذا الشتاء ، عبرته فتاتان في الجليد فعثرت أقدامهما عليه. وهكذا تعالت الصرخات منه . وحرمت جماعات التلاميذ الصغار من استخدام هذا الطريق القصير . وكم يكون المسير مرهقاً وطويلاً ، عندما يوجد طريق آخر قصير !

وها هو بيتشوجين يفكر . . ويهتدي أخيراً إلى ضرورة قطع صفصافة قديمة من هذا الشاطئ ليسقطها على الشاطئ الآخر . وكانت لديه " بَلْطة " جيدة ، مشحوذة من عهد جده ، فراح يقطع في الصفصافة . .

اتضح بعد قليل أن هذا عمل غير سهل . فقد كانت الصفصافة غليظة جداً ، لا يمكن لإنسان واحد أن يضمها بذراعيه الاثنين . لكنها بعد يومين من العمل المتواصل سقطت . . راقدة عبر النهر الصغير .

ثم كان على بيتشوجين أن يشذب فروع الصفصافة التي

تعوق المسير ، وتشتبك تحت قدميه . لكنـــه - بعـــد أن قطـــع الفروع - وجد أن السير أصعب ، لأنه لم يكن هناك شئ يمكـــن الاستناد إليه وخاصة عندما يسقط الجليد .. وقرر بيتشـــوجين أن يركب سوراً من أعواد الخشب .

وهكذا ظهر جسر جيد . ولم يَعد التلاميذ فقط هم الذيـــن يستخدمونه وإنما كل سكان المنطقة عندما يعبرون من قريــــة إلى قرية أخرى ، بواسطة طريق قصير . حتى أن أولئك الذين كانوا يستخدمون الطريق غير المباشر ، كان يقال لهم :

- هل تريدون أن تقطعوا مسافة سبعة آلاف متر ! اذهبـــوا مباشرة عن طريق جسر بيتشوجين.

وعندما تآكلت الصفصافة ، وأصبح السير عليها محفوفاً بالمخاطر استبدل بها أهالى القرى المجاورة جذع شجرة أخرى جيدة . . لكنْ بقى الاسم الأسبق للجسر ، وهو : بيتشوجين .

ثم لم يلبث هذا الجسر أن تغير ، وأصبح طريقاً معبـداً ، وعبر النهر السريع ، امتد الطريق ، فى نفس مكان ذلك الممـــر الصغير ، حيث شيدت الحكومة جسراً كبيراً ، ارتفعـــت علـــى

جانبيه قوائم من حديد الزهر . وكان من الممكن أن يُطلق علـــى هذا الجسر الضخم اسم كبير . لكن أحداً لم يفكر على الإطلاق فـــى أن يطلق عليه أى اسم آخر سوى : جسر بيتشوجين !

وبهذه الطريقة وحدها ، يمكن أن يصبح للإنسان اسم فى الحياة!

الطاقية السادسة

بقلم ي . كوراتوف
مترجمة من الروسية

كان عمرى فى ذلك الوقت سبعة شعر عاما . عملت فى دائرة مكاتب خاصة بالتخزين كموظف متجول . والواقع أن هذه كانت وظيفة شخص محترم فى الذهاب والإياب . ما يأمر بـــه ينفذ.

وعلى نحو ما ، أرسلونى فـــى الربيـــع المبكـــر إلـــى (كوبيلوخا) ، حيث ضاعت من أحد مخازننا بعض القطعـــان ، وقد فرحت بهذه الرحلة فرحا شديدا ، فهناك كان لـــى صديـــق عزيز اسمه (كوسائين) ، وقد أقمت معه فـــى أحـــد الأكـــواخ البرية .

أمام الأكواخ الكازخستانية ، ليس من النادر أن تلتقـــى بثعلب صغير مربوط فى وتد ، وهذا يتم على النحـــو التـــالى :

يثبت الوتد فى الأرض ، وعلى الوتد تثبت حلقة منزلقة بعروة ، وفى العروة تثبت سلسلة . وفى السلسلة يقيد الثعلب الصغير بطوق فى رقبته ، ويجرى الثعلب حول الوتد . وميزة الحلقة المنزلقة أنها لا تجعله يتعثر ، وغالباً ما يلعب الأطفال الصغار مع الثعلب الصغير : يطعمونه ويعتنون به . ومع حلول الشتاء ، يكون الثعلب الصغير قد كبر ، وصار ثعلباً . . ثم بعد ذلك يتحول إلى طاقية ، وهى التى تكون غطاء الرأس الكازختسانى ، الذى يشبه المثلث .

عندما وصلت إلى (كوسائين) ، رأيت ثعلباً كبيراً جميلاً ، مربوطاً فى الوتد . كان مستلقياً ، وهو يرضع خمسة ثعالب صغيرة . وقد أخبرنى (كوسائين) أنه اصطاد العائلة بأكملها من الجحر .

وحين سألت كوسائين عن الثعالب الخمسة التى لم تكن مربوطة :

– كيف لم تجر ؟

– أجاب على الفور :

– وإلى أين يجرون ؟ ولأى شئ يهربون من أمهم ؟ كيف سيعيشون ؟ ومن يقدم لهم الغذاء ؟ وعموماً فإن الثعالب الصغيرة لا تجرى بصورة جيدة ، وهذا حسن بالنسبة إليهم ، وبالنسبة لى أيضاً حسن . . لأنهم عندما يكبرون ، سيصبحون ست طواقٍ . .

عشت فترة عند كوسائين ، أعطى وقت فراغى كله للثعلب وأبنائه . وقد حفر كوسائين حفرة بالقرب من الوتد ، وفرشها بالصوف . الثعلب يتغذى باللحم النيئ ، وأحشاء الحيوانات . وهو فى العادة قبل أن يأكل ، يشرب لبن الفرس ، وبمرور الوقت ينسى الثعلب العبودية ، ويبدأ يشعر بالفرح مع أبنائه الذين يتحركون برشاقة من حوله ، ويلحسهم بريقه ، ويلعب معهم ، ثم يتمدد بسعادة عند الحفرة ، عندما يحين وقت إرضاع الثعالب الصغيرة .

والثعلب يصبح بصعوبة وحشاً مستأنساً . الضجة وأصوات الناس تخيفه . وكل من الدخان والنار يرعبه . أما جوار الكلاب فهو بالنسبة له جوار خطر . لكن للثعلب أبناء. هى أم . وشعور الأمومة يجعلها تهادن الجميع ، وهكذا

فإن الخوف الشديد هو الذى يجعلها تتناسى السلسلة ، والطـوق ، والأسر .

أحياناً تجرى للثعلب نزهة . ويقـــوم بـــهذا العمـــل ابـــن كوسائين . إنه يزيد من طول السلسلة قليلاً ، ويجـــرى بـــه فـــى السهول البرية . ويتبعه فى الجرى الثعالب الصغيرة.

كان الثعلب يجذب السلسلة بشدة ، وهو يندفع فى أعمـــاق البرارى الشاسعة ، بعيداً عن المساكن ، والمراتع القريبة منـــه ، ومن المؤكد أن كل نزهة من أمثال هذه النزهات كانت تمثـــل لـــه بداية محاولة تحرر . . ولكن بلا جدوى ، فإن السلسلة ترجعـــه، وقد استدرنا للخلف ، والثعلب الآن لا يندفع بنفس سرعته الأولى، إنه يمشى متثاقلاً فى خطوه خلفنا ، منكساً رأسه فى حزن ، وهو يشاهد الوتد البغيض ، والحفرة التى صنعها له الإنســـان ، أمـــا الثعالب الصغيرة فإنها لا تفهم شيئاً على الإطلاق ، فهى تســـرع ، واحداً وراء الآخر ، أو مشـــتبكين مـــع بعضـــهم البعـــض فـــى عراكٍ برئ . .

عندما أنهيت أعمالى سافرت . ومضت عدة أشهر لـــم أر

فيها كوسائين . وفى نهاية الربيع ، أرسلونى من جديد إلـــــى كوبيلوخا ، التى أصبحت فيما يبدو معرضة لهطول الأمطــــار ، واضطرابات الجو . .

وما أن وصلت حتى أسرعت إلى كوسائين ، وفى نفــس اللحظة سألت عن الثعلب : قال لى : " انظر . . انظر . . "

وقبل أن أفك بردعة الحصان ، أسرعت إلى وتد الثعلـب خلف الكوخ . وهناك رأيته جالساً بلا حراك . وجهه الــهزيل ، الحاد صار ممتلئاً ورقيقاً . وكان ينظر إلى البرية بتوتر . وقــد رجفت عظام وجنتيه رجفة عصبية . ولم يعرنى أى اهتمـــام . قلما كانت عيناه تطرفان . كان ينظر إلى بعيد . . كما لو كـــانت أمنيته أن يرى شخصاً من خلال الضباب الســديمى . . وكـــان طعام الثعلب بالقرب منه . . لم يُمسّ .

قال كوسائين بحزن :

– إنهم هجروها فى الليل . وما فائدة الأم لـــهم الآن ؟ لقــد أطعمت أبناءها ، أعطتهم كل شئ . . الأســـنان البيضـــاء الحادة، والفرو الدافئ الأحمر ، والأرجل السريعة العـــدْو ،

والعظام المتينة ، والدم الساخن . . ماذا تعنى لهم الأم الآن ؟!

فى طفولتى ، أسرفت كثيراً فى سماع القصص المبكيـة ، وقد علمتنى أن أتأسف حتى على الشجرة المكسورة ! وقد حزنـت للغاية على الثعلب الذى جلس هكذا بانشغال ورقة ، بعدما هذبـه الخوف والأسر ، قريباً من ضجيج الإنسان ، ودخان مسـكنه . . خمسة ثعالب تركت الآن أمهم المشغولة عليهم للوحدة مع ذلـك الوتد البغيض فى ليل الخريف المظلم . . هجرتها وقد نام الجميع، ولم تستطع الكلاب التى أطلقت وراءها أن تلحق بها . كان هـذا خداعاً . . آه . . الخداع ، الذى هو شعار حياة الثعالب ، قد تلقته الثعالب الصغيرة أيضاً من أمهم !

بالنسبة إلى الوحش ، هذا هو القانون ، لكن الإنسان يريد أن يرى الوحوش أفضل مما هى عليه فى الواقع . وهكذا كـانت عينا الثعلب الإنسانيتان ، النبيلتان مصوبتين فى الفراغ . .

وأخبرنى كوسائين : لقد نادت عليهم . نادت عليهم بحـزن بالغ جداً . .

وبالأمس انتشر نحيبها فى البرية كلها ، وبكتهم كما لـو

كانت تبكى الموتى ، بصورة ذليلة . . ذليلة جداً .

ثم أضاف : خسارة كبيرة . . فلتت منا خمس طـــواقٍ ! لكنه عندما تطلّع إلىّ ، يبدو كأنه قرأ فى وجهى الأسى الـــذى أثاره منظر صديقى البرى المتوحش . .

إننى لم أتبادل معه الهدايا فقط ، وإنما المشاعر الطيبـــة أيضاً . .

وفى صمت ، توجه كوسائين إلى الثعلب ، وفكـــه مـــن حلقته ، وقال :

– إذا كنا قد فقدنا خمس طواق ، دعنا نفقد السادسة . ولـــن أجعلك تحسبنى أضع على رأسى طاقية ثعلب حزين . ليـــس لدى رأس لمثل هذه الطاقية !

وبعد أن قال ذلك أطلق صرخة علـــى الثعلـــب . لكـــن الثعلب لم يجر ، واكتفى بأن أصدر صوتاً خفيضاً يشبه الصفير، ثم اندفع إلى الحفرة التى بجوار الوتد .

قال كوسائين متأملاً :

إنه لم يثق بعد فى الحرية ، طبعا . . إن السلسلة تستأنس حتى الوحش ! وفى الصباح بدت الحفـــرة فارغـــة . وقـــال لـــى كوسانين بسرور :

أبشر يا صديقى . فقد رحلت الطاقية السادسة تبحث عن طواقيها الخمس . . إنها ستجدهم . من الضرورى أن تجدهم وتتكلم . . سوف تتحدث بصورة جيدة جدا . . لكن من الممكن أن تسكت . . وتأسف . . أليست أما !

بنت القيصـــر

بقلم بوكورانوف

مترجمة من الروسية

فى فناء أحد القصور المهجورة ، كـــانت هنـــاك بـــئر محفورة ، استوطنت فيها ضفدعة ، كانت تجلس هنـــاك لأيـــام طويلة ، فى ظل حافة البئر ، وعندما يقترب شخص ما ، تسرع إلى الجانب الآخر منه ، مختبئة تحت دلو قديم.

وفى أحد الأيام ، اتجه (كوليا) ناحية البئر ، للحصـــول على الماء . ولاحظ أن شيئا ما قد أسرع ناحية الدلو . ارتعـــد فى البداية ، لكنه أمسك بعد ذلك حجرا ، وراح يقترب بـــهدوء من الدلو ، ثم قلبه بيده ، ورأى على الأرض ضفدعة ، لم يكن لها مكان تجرى إليه ، فانكفأت على الأرض عـــاجزة ، وهـــى تحملق إلى كوليا بعينين كبيرتين حزينتين . .

مد كوليا يده إلى الضفدعـــة . وفجـــأة تذكـــر إحـــدى

الأقاصيص القديمة ، التى يقولون فيها إن (إيفان) ابن القيصر أنقذ ابنة القيصر الشابة ، التى كان قد حوّلها (كاشى) الشرير إلى ضفدعة . ومسّ كوليا المكان بهدوء ثم قال :

– لا تخافى . .

وتوقف مدة قصيرة ، ثم سأل :

– أ أنت ابنة القيصر ؟

نظرت الضفدعة إليه بعينين سوداوين مستديرتين ، وهو يقول ذلك ، وبسرعة حركت حوصلتها الضعيفة أسفل الذقن ، كما لو أنها تحاول جاهدة أن تقول شيئاً . وسأل كوليا :

– ومتى تحوّلت ؟

فحركت الضفدعة مرة أخرى حوصلتها الضعيفة . لكن كوليا أضاف :

– لا يهم . اسكتى . وسوف أعرف هذا عندما تحدثيننى عن كل شئ ، فيما بعد . أما الآن ، فعيشى كما أنت فى البئر .

ألقى كوليا بالحجر من يده . وملأ الماء من البئر . ثم استدار ليذهب إلى البيت. لكنه وقف متسمراً .

في ذلك المكان نفسه ، حيث كانت تجلس الضفدعـــة ، ظهرت أمامه فتاة ، كانت أقصر منه قليلاً : بيضاء ، مليحـــة ، في ثوب قصير أحمر ، وبيدها دلو . وبسرعة راح كوليا ينظــر حول الفتـــاة علـــى الأرض . لـــم تكـــن الضفدعـــة هنـــاك . وسأل كوليا:

– من أنت ؟ وكيف ظهرت فجأة ؟

– متى

– متى ؟ الآن ؟

– لا . . أنا فقط غيّرت ملابسى فى الطريق .

– لا يهم هذا . . غيّرت لنفسك .

– واستطرد ، كأنما يحدث نفسه :

– أى شئ يحدث لنا الآن ؟

وأجابت الفتاة :

– لا شئ . . ساعدنى على رفع الماء من البئر.

تحوّل كوليا إلى الجانب الآخر من البئر ، وسأل :

– أخبرينى . . أى شئ تكون ابنة القيصر ؟

– لا أدرى .

وحملت الفتاة الماء ، واتجهت إلى المنحنى . .

وصاح كوليا :

– إلى أين تتجهين الآن ؟

أجابت الفتاة :

– للبيت . . إننا نسكن هنا . . قريبا . . انتقلنا اليــوم ، ومــن الضرورى أن نغسل أرضية المنزل .

وببطئ ، ابتعدت خلف شجرة خوخ . وبدون عناية ، كان الماء يتناثر من دلوها على الأرض !

آستا . . مدرّستى الجميلة

بقلم جـ . سكولسكى
مترجمة من الروسية

منذ زمن بعيد ، وأنا أعيش فى تاللين . وقد حـاولت أن أدرس الأستونية ، لغة البلد ، التى لم أحفظ منها إلا بعـض العبارات القليلة جداً . مثل :

" من العيب عدم معرفة لغة الشعب الذى تعيش وسطه " أو " أنا لم أحضّر الدرس " ومن وقت لآخر ، تنطق مدرّسـتى آستا كازبيك الجملة الأولى ، أما الثانية فكثيراً ما كنت أرددها .

أنا أكبر من مدرّستى بحوالى عشرين سنة . وهى تبلـغ من العمر حوالى خمس وعشرين سنة.

تأتى آستا فى الصباح مبتسمة . بدون ابتسـامة ، لـم تكن تظهر أبداً . ثم نبدأ فى إعراب اسم ما من حالات الإعـواب

الأستونية الأربع عشرة ، ونقوم بعد ذلك بإجراء المحادثة ، التـــى تسمى : حرّة .

مثلاً تسألنى آستا :

– ماذا حلمت فى الليلة الماضية ؟

– وأجيب ببطء ، مخرجاً كلمة وراء كلمة بصعوبة شديدة :

– لم أحلم بشئ . لقد نمت نوماً هادئاً . . وأنتِ بماذا حلمت؟

وتجيب مفكرة :

– حلمت بأننى أجلس فـــوق تـــاللين ، علـــى شـــاطئ بحـــيرة يوليمست . وفجأة يخرج من البحـــيرة مـــلاك ، ذو لحيـــة ، عجوز . . عجوز . . ثم يتكلم بإرهاق :

" انظرى يا امرأة ، وقولى : هل المدينة ستكون مســـتعدة قريبا ؟ "

أخمن فى شكل حلمها الذى رأته ، وأرى أنها تحدثنى عـن أسطورة شعبية ، تقول إن تاللين ستختفى من الوجود إذا ما سقط

الحجر الأخير ، من المنزل الأخير فيها . عندئذ سيقذف الملاك الماء من البحيرة ، ويغرق المدينة كلها .

إننى أعرف الأسطورة جيداً ، لكننى أخفى ذلك . وفقط أسأل :

– بماذا أجبت ملاك البحيرة يا آستا ؟

– أنا . . لم أجب بأى شئ . .

اتسعت عينا آستا ، وأصبحتا أكثر استدارة ، وذعراً . وكان للمدّرسة آستا مخيّلة حيّة .

– إنما أسرعت إلى المدينة ، ورحت أصيح فى الشوارع : شيّدوا . . شيّدوا . . لا تتوقفوا دقيقة واحدة !

ثم تأخذ آستا نَفَساً ، وتبتسم : وأنا أحب الابتسامات على الشفاه ، غير الملموسة بحمرة الماكياج ، ولا أخفى هذا عن مدرستى .

وتقول آستا الجميلة :

– طبعاً كل هذا اختراع . لكننى فى مقابل ذلك كنـــت بــالأمس مشتركة مع مجموعة عمال بناء ، وقد ملّطت معـــهم بعـض الجدران .

وأسعد لأن كلمات مثل " اختراع " و " ملطت " ينبغـــى أن تترجمها لى . وأسأل :

– وهل هؤلاء العمال أصدقاؤك ؟

لو استطعت لم أسأل . فإن آستا تقوم أيضاً بالتدريس فـــى مدرسة ليلية لعمال شبان ، وفيها الكثـــير مـــن البنّـــائين الذيـــن تصادقهم .

– طبعاً .

– وهل يعملون بصورة جيدة ؟

من الواضح أن السؤال يقصد إلى تحويل آستا للحديـــث عن البناء ، وترك موضوع الدرس . ولكى تنقل لنا المفهوم علــى نحو أكثر كمالاً ، تجرى الحديث باللغة الروسية . وكــم يســـعدنى هذا . فإننى أستغرق فى تأمل ابتسامتها الحلوة ، ونطقها الظريف

لتلك اللغة ، بالإضافة إلى قلب بعض الحـــروف المتقاربـــة . . وعموماً ، فإن لدى علاوة على سنى الكبير ، دراسة أعمق فى علم النفس !

وتضطرب آستا عندما تقترب الحصة من نهايتها :

– مرة أخـــرى ، أنـــا اليـــوم التـــى تكلمـــت وتكلمـــت . . لكن لا بأس، فى المرة القادمة ســـــتتحدثون أنتـــم فقـــط ، وباللغة الأستونية .

– حسنا . . أنا موافق .

لكن الحصة التالية ستكون فى يوم الثلاثـــــاء . وفـــى مساء السبت ، وطوال الأحد ، تسافر آستا للعمل فى مزرعـــــة جماعية ، حيث تعد بعض المواد لصناعة الألبان . كما تجـــرى " بروفة " أخرى فى النادى مع مجموعة من الممثلين الـــهواة . الخلاصة: سيكون عند آستا من الأشياء ما تتحدث عنه . وأنـــا أجتهد فى أن أجعلها لا تخفى شيئاً أبداً . لكن نادراً ما تتحقـــق الآراء التربوية لدى آستا أكثر من الرغبة الطبيعية .

فى الحصة التالية ، بدأت آستا :

- سنذهب اليوم فى رحلة متخيلة إلى المدينة . حديقة كادربورج . أنت رحّالة . تحدثْ.

- الحديقة كبيرة . فى الربيع ، الأشجار خضراء . وغير بعيد منها يوجد بحر بالتيسكو . إنه كالسلسلة .

وتقاطعنى آستا :

- هذا ردئ . فإن تلك العبارات قد عرفتها منذ عام ونصف . فكرْ فى شئ جديد . إذا شئت عن العشاق ، الذين يجلسون هناك على المقاعد الرخامية.

وأؤكد بصورة قطعية :

- إنهم يتحدثون عن الحب . .

ثم أضيف ، مفكراً :

- لكن المقاعد قديمة !

ويبدو جيداً أن الاحتياطى الضئيل جداً من الكلمات الأستونية يمنع خيالى من التحليق !

وتتنهد آستا :

- لا يهم . سنخرج من الحديقة . . لكـــن إذا شـــئت محـــل أثاث . أنت مشترٍ ، وأنا بائعة .

وبسرعة أصيح :

- أحتاج إلى رف كتب .

- لا توجد رفوف كتب . لكن توجد مقاعد وثيرة ، ومناضد ، وأباجورات - أنت مثلاً: من المحتمل أن تكون لديك شـــقة جديدة . وينبغى أن تكون مريحة . مثّلْ بنفسك : تجلس فى مكان هادئ ، ومن السقف يسقط ضوء خافت . .

وأسأل متعمداً اللهو :

- وأنت . . متى تحصلين على شقة يا آستا ؟

وتعبس آستا . من الواضح أن السؤال عديم اللياقـــة . فهى تستأجر حجرة فى داخل شقة بمكان ما خارج المدينـــة . ومع أنها تأمل فى أن تتبدل الحال ، إلا أنها ما زالت سيئة .

وأحاول الاعتذار فأقول :

– لا تغضبى يا آستا . فأنا ببساطة لا أهتم بالأثاث الغالى . ما يهمنى فقط هى أرفف الكتب .

–حسناً . . حسناً . لنذهب الآن إلى محل ثياب رجالى . أنت البائع وأنا المشترية . . أرنى هذه البدلة الجميلة .

– إنها غالية جداً . تساوى أكثر من ٢٠٠ روبل .

– لا بأس . عندما تريد أن تدخل على السرور ، فلا تفكر فى النقود .

– لكن أى سرور تحصلين عليه من شراء بدلة رجالى ؟

– البدلة تناسب زوجى

وفجأة أسألها بالروسية :

– هل أنت متزوجة يا آستا ؟

فتجيب بلهجة واعظ :

–أية جرأة . . إنما نحن نتمرن باللغة الأستونية !

وما تلبث آستا أن تخرج . وأظل أنا خلف نافذة الفصل، أشاهد شعرها الناعم وهو يتطاير فى الريح . وأقول لنفسى :

– ربما لو كنتُ أصغر عشرين سنة . . كانت دروسنا تســـير على نحو أكثر نجاحاً !



فـــاطمــــة

[حكاية من الفلوكلور الألبانى]
ترجمها إلى الفرنسية روجر أرنالديز
ومن الفرنسية : د. حامد طاهر

يحكى أنه كانت ثلاث أخوات . صغراهن اسمها فاطمـــــة . وكانت أجملهن . وفى ذات يوم ، خرجـــت الأختـــان الكبريـــان ، وسألتا الشمس ؟

" أيتها الشمس . . من هى أجملنا ؟ "

فقالت الشمس : فاطمة .

عندئذ راحتا تغرقان أنفسهما بالحلى والأساور ، ثـــم فـــى اليوم التالى ، عادتا تسألان الشمس . ومــــرة أخـــرى ، أعلنـــت الشمس رأيها لصالح فاطمة .

فكرت الأختان فيما ينبغى عمله ، وقالتا فيما بينهما :

– غدا ، نتظاهر بأننا سوف نذهب إلى الغابـــة المجـاورة ، ونغادر المنزل قبل فاطمة ، ثم نقول لها : " حيـــث تكــون جرتانا معلقتين ، سوف تجديننا "

وهكذا بدا لهما حسن صنعهما . وفى اليوم التالى ، قالتا لفاطمة :

– اكنسى المنزل . أما نحن فسنذهب لنجمـــع الحطــب مـــن الغابة . ويمكنك أن تجدينا حيث تكون جرتانا معلقتين .

خرجت الأختان . وعندما انتهت فاطمة مـــن الكنـــس ، كانت على الطريق . وفى الغابة ، راحت تبحث هناك وهنـــاك ، حيث يمكن أن تضع أختاها الجرتين . لكنها لم تجد شــيئا . لأن أختيها مرقتا من طريق آخر ، عائدتين إلى المنزل .

لفت فاطمة الغابة ألف مرة لكى تعثر على أختيها ، فلـــم تجد لهما أثرا . وعندما سقط المساء ، تسلقت أغصان شجرة عالية ، ولمحت على البعد ضوءا يتـــلالأ . اتجـــهت ناحيتـــه ، وأخيرا حمدت الله أن وصلت إلى منزل ، فدخلته .

كان هذا المنزل مأوى لأربعين لصـــا . وكـــان هـــؤلاء

اللصوص يسرقون أثناء الليل ، وفى النهار يعودون . وكالعادة ، رجعوا إلى المنزل فى ذلك اليوم . وعلى طلقات بنادقهم انفتح الباب ، فدخلوا ، وجلسوا .

وعندما حان وقت الطعام . صفّت الأطباق على مائدة رائعة . وقدمت ألوان الطعام الشهى . لكنهم لاحظوا وهم يأكلون أن هذا الطعام ليس من عمل طباخهم (وهذا حق . . لأن الطباخ عندما رأى فاطمة ، أحبها ، وكلفها بإعداد الطعام) وهنا سأل اللصوص الطباخ :

– هل عندك أحد بالداخل ؟

وفى البداية لم يشأ الاعتراف ، لكنه ما لبث أن قال لهم الحقيقة كلها . وهنا أراد كل منهم أن يتزوج فاطمة . . لكن خوفاً من أن يتصارع بعضهم مع بعض ، تركوها لطباخهم ، ثم خرجوا كلهم .

أما فاطمة ، فقد أحبها اللصوص الأربعون كأنها أختهم تماماً . وأحضروا لها ألف شئ طيب .

وعندما علمت الأختان بأن فاطمة على قيد الحياة ، وأنها

تزوجت فى مكان ما، حزنتا حزنا شديدا ، وقررتا أن تقتلاهـــا بأية وسيلة .

وذات يوم ، أرسلتا إليــها عقــدا مــن ذهــب (وكــان مسموما ، ومن طبيعته أن يقتلها عندما تضعه حول عنقها) !

دخلت خادمة الأختين ، وحيت فاطمــة ، متمنيــة لــها صحة جيدة ، كما أمرتها سيدتاها أن تفعل . ثم أعطتها العقـد . وما أن تناولته فاطمة حتى وضعته فى عنقها . وعلى الفـــور سقطت ميتة .

عاد اللصوص . وأطلقوا رصاص بنادقهم لكــى ينفتــح الباب . وعندما لم يسمعوا إجابــة ، قــرروا اقتحــام المــنزل بالقوة ، ودخلوا . . وعلى الفور ، وجدوا فاطمة ملقــاة فــى وسط الحجرة ، فراحوا يحركون جسدها من هنا ، ومن هنــا ، وأخيرا نزعوا من عنقها العقد . وفى نفس واحد ، بعثت مـــن جديد . . ثم أخذت تقص عليهم من أى شئ ماتت ، فنصحوهــا بألا تقبل فيما بعد شيئا من أختيها .

لكن فى اليوم التالى ، عندما علمت الأختان بأن فاطمــة ما زالت على قيد الحياة، أرسلتا إليها خادمتهما بمنخــل ملــئ

بقطع من الذهب ، مع بعض الأشواق والأمانى التى نجحت مـــرة أخرى فى خداع فاطمة ، التى تناولت المنخل ، وما كادت تفرغـــه فى حجرها حتى سقطت ميتة .

عاد اللصوص من مغامرتـــهم الليليـــة ، يصحبـــهم زوج فاطمة . ومن جديد وجدوها ميتة ، فقاموا بتفتيشـــها ، وأبعـــدوا القطع الذهبية المختبئة فى حجرها . ثم أكدوا عليها ، هذه المـــرة أكثر مما سبق ، ألا تمس شيئاً مما يأتى من أختيها فيما بعد . .

وأسفاً ! ! من جديد خدعت فاطمة . لأن أختيها علمتا بعد يومين أنها لم تمت، فأرسلتا إليها خاتماً ، أخذته فاطمـــة . ومـــا كادت تضعه فى إصبعها حتى فارقت الحياة.

عاد اللصوص من مغامرتهم الليلية . ومرة أخرى وجودها ميتة . وفتشوها من هنا ، ومن هنا . . لكن لم ترد على أذهانـــهم فكرة البحث فى يدها . .

عندئذ بكوها . . ثم وضعوها فـــى نعـــش ، وغطوهـــا ، وأودعوا النعش فى سنديانة ، ينساب من تحتها جدول ماء . .

وذات يوم ، جاء سائس الملك ليسقى حصانه من الجدول.

وما كاد الحصان يقترب حتى ارتد دون أن يلمس الماء ، لأنـــه رأى فيه ظل النعش . .

عاد السائس إلى الملك ، وحكى له ما شاهد . فـــانتقل الملك بنفسه . وفى الموضع الذى ارتعد فيه الحصان ، ألقـــى الملك ببصره فى ماء الجدول فبدا له خيال النعـــش . . فـأمر بإنزاله ، ورأى أنه يضم جسد فتاة ، غاية فى الحسن، فنقلـــها إلى قصره ، حيث وضعها فى أحد أجنحته .

مر الوقت . . وبدأ جسد فاطمـــة ينحـــل ، وأعضاؤهـــا تضمر . وبعد عدة ايام ، سقط الخاتم من إصبعها ، وفى نفـس اللحظة ، بعثت حية من جديد . .

وكانت سعادة الملك غـــامرة ، فقـــرر أن يتزوجـــها . وعاشت طويلا ، وكانت دائما سعيدة .

الدب والدرويش

[حكاية من الفولكلور الألبانى]
ترجمها إلى الفرنسية : روجر أرنالديز
ومن الفرنسية : د. حامد طاهر

يحكى أن راعيا كان يحرس قطيعه . وكـــان يعـــانى مـــن التشدد فى حراسته ، لأن دبا كان يأتى كل يوم ، ويلتـــهم مـــن القطيع خمسة أو ستة خراف.

وذات صباح جميل ، مر بالراعى درويش متجول . وبعـــد أن تبادلا التحية ، قال الراعى:

- يوجد هنا دب شرس . لا يتركنى هادئا قط . فى كـــل يـــوم ، يخطف منى خمسة أو ستة خراف . ألا توجد وسيلة ضده ؟

فأجاب الدرويش :

- سأقتله فى نفس المكان . ولن أطلب منك شيئا سوى ثـــلاث

قطع من الجبن الأبيض.

أسرع الراعى فأعطاه الجبن الذى طلبه . وجاء الــــدب كعادته ليخطف الخراف. وعندما وصل تقدم إليــه الدرويــش ، وبدأت بينهما مناقشة ، لمعرفة من منهما أقوى من الآخـــر . وبالطبع ظن الدب أنه هو الأقوى . لكن الدرويش قال له :

- إننى سأسحقك مثل هذا الحجر .

وفى نفس اللحظة ، أخرج من جرابـــه قطعـــة الجبـــن الأبيض ، ثم القطعة الثانية ، والثالثة ، وبدت القطع كمـــا لـــو أنها دقيق مطحون . وزادت دهشة الدب فتخير هو أيضا حجـوا أبيض من فوق الأرض ، لكنه لم يقدر أن يفعل به مثلما فعـــل الدرويش .

عندئذ نشأت بينهما صداقة مشتركة . وانصرفا معا .

وبعد وقت قصير ، جاع الدب ، فطلب من الدرويـــش أن يذهب ليصطاد لهما ثورا يأكلانه ، قائلا له إنـــه ، فـــى أثنـــاء ذلك ، سوف يجمع الحطب من الغابة .

لكن الدرويش قال له :

- اذهب أنت لاصطياد الثور . لأننى لا أهتم باصطياد مثل تلـــك الفريسة الصغيرة ! إن ما يليق بى إنما هو اصطياد أسد !

وهكذا أتاحت له تلك الحيلة أن يتجنب اصطياد الثور. أمـــا الدب فقد مر بجانب قطيع من الثيران ، وبسرعة قفز على ثــور ، وعاد به يحمله على كتفيه .

وفى تلك الأثناء ، مضى الدرويش إلى الغابة. وهنـــاك . . ماذا فعل ؟

تناول حبلا طويلا ، وربط به كل أشجار الغابة ، كما لـــو أنه سيقتلعها بجذبة واحدة .

وعندما عاد الدب نادى على صديقه الدرويش. فلم يـــرد، فمضى الدب إلى الغابة ، وشاهد ما أعده لاقتلاع كل أشجار الغابة بجذبة واحدة . زادت دهشة الدب من صديقه . وقال لنفسه : " إن هذا الرجل أقوى منى ألف مرة " ثم قال بعد ذلك بصوت عال :

- ما ستفعل بكل هذه الأشجار التى ستقتلعها ؟ خذ منها فقـــط

فرعاً أو فرعين ، وعُدْ . .

فأجابه الدرويش :

– أنا لست الرجل الذى يأخذ قطعتين صغيرتين من الغابة . لكنك أنت الذى يفعل ذلك.

وعندئذ جذب الدب فرعين كبيرين من شجرة . ثم عادا إلى مكان الثور ، وراح الدب يقطعه .

لكن كان ينبغى أن يُطبخ الثور . فقال الدرويش :

– سوف أذهب لإحضار الماء ، فابق هنا لتقليب الخشب بدلاً من أن تتعب نفسك (قال هذا لأنه لم يكن بقادر على أن يقلّب ثوراً ضخم الجثة).

ثم أخذ وعاء ، ومضى به إلى نبع يفيض من صخرة . وبعد أن ملأه ، وضعه على كتفه ، لكنه لم يستطع أن يحتفظ به طويلاً ، فتركه يسقط على الأرض، قبل أن يتهاوى من الإعياء .

انتظر الدب ساعة ، ساعتين . . وأخيراً اتجه إلى النبع،

الذى ذهب إليه الدرويش . وعندما وصل قال له :

– لماذا تأخرت كثيراً هكذا ؟

فأجابه الدرويش :

– كنت أفكر فى طريقة لإحضار النبع من الصخرة التى يخـــرج منها ! ومع الأسف لم أستطع إحضاره كما ينبغى . وقد وجدت أن رجوعى وحدى بوعاء يخجلنى . أما أنت ، فيمكنك حمله .

حمل الدب الوعاء على كتفه ، ثم عاد الاثنان .

وبينما هما سائران ، قال الدب للدرويش :

– هيا بنا نتصارع معاً لبعض الوقت .

فصاح الدرويش :

– انج بنفسك منى . . لأننى لا أرغب فى أن أسبب لك أذى

– ومع ذلك ، انتهى بهما الأمر إلى أن يتصارعاً . .

ضغط الدب على الدرويش بقوة جعلت عينـــى الدرويـــش تكادان تخرجان من رأسه . . وعندما شاهد الدب وجهة المنتفخ ،

وعينيه البارزتين ، اللتين جحظتا بشدة، سأله :

– لماذا أصبحت هكذا ؟

فأجاب الدرويش :

– لأننى لا أعرف بالضبط أين أقذف بك . . من هنا فـأمزّقك قطعاً ، أم من هنا ، وهذا أسوأ . .

فقال الدب :

– اسمح لى أن أطلب عفوك . . وتركه .

وبعد وقت قصير ، وصلا إلى موضع الثور المطبوخ ، وأخذا يأكلان . وبعد قطعتين صغيرتين من لحم الثور ، توقف الدرويش عن الأكل فسأله الدب:

– لماذا توقفت ؟

– لم تعد لى حاجة للطعام ، بعد أكل عدد من الخراف التى أكلتها وأنا ذاهب لحمل الماء (وكان الدرويش أضعف من أن يلمس خروفاً واحداً) وبعد الطعام ، اقترح الدب على

الدرويش أن يصحبه إلى منزله كصديق عزيز . وأخذه إلـــى المنزل .

وما أن وصلا ، حتى طلب الدب من أمه وأخته أن يشــحذا له الفأس ، لأنه صمم على قتل الصديق الذى أحضـــره ، وهكـــذا يتخلص من الإنسان الذى ظهر أنه أقوى منه . ومـــا أن ســـمعت أخت الدب (وكانت دبّة طيبة) هذا الكلام ، حتى أســـرعت إلـــى الدرويش ، وحكت له كل شئ .

جاء الليل . وجلس الدب على المائدة . وأكلوا جيداً ، ثـــم تمددوا على الأرض . وناموا .

وبالطبع تظاهر الدرويش بالنوم ، فى المكان الذى اختـــاره أمام الدب ، لكنه ما لبث أن اختبأ خلف " بردعة " حمـــار كـــانت ملقاة فى المكان . وحوالى منتصف الليل ، نهض الدب ، وتنـــاول فأسه ، ثم أهوى به على جسد الدرويش ثلاث أو أربع مـــرات . وبعد أن أعتقد أنه انهرس تماماً ، عاد إلى مكانه ، ونام.

قبل طلوع الصباح ، نهض الدب ، وذهب إلـــى الغابـــة . وعند عودته ماذا رأى ؟ الدرويش ! وما أن رآه حتى راح يفـــرك

عينيه ، غير مصدق نفسه. ومع ذلك سأله :

- كيف أمضى ليلته ؟

فأجابه الدرويش :

- حسناً جداً . . ما عدا لسعات برغوثيـــن أو ثلاثـــة قـــرب منتصف الليل !

صدم الدب من الدهشة ، حيث أن ضربات فأسه القويـــة لم تبدُ للدرويش إلا كلسعات البرغوث !

وفى حالة من عدم التماسك ، اعترف الــدب لـــه بكـــل شئ ، وتوسل إليه لكى يخبره كيف يصبح قوياً مثله .

أجاب الدرويش :

- لا شئ أسهل من ذلك . وما عليك إلا أن تبحث لـــى عـــن قربة لبن .

ذهب الدب ، وعاد بقربة لبن . فأشعل الدرويش النار ، ووضع القدر عليها بعد أن ملأها باللبن . وعندما بدأت تغلـــى ، قـــال

الدرويش للدب :

– ضع رأسك هنا . . حتى تصبح قويا !

وضع الدب رأسه لأول مرة ، فاحترق . ثم وضعها لثـــانى مرة . وفى ثالث مرة، دفعها الدرويش بقوة . .

وهكذا تركه يطبخ على نار مكمورة !

كيف سقط السروال من حسان

للكاتب الروسى : فلاس دوروتشيفتش
مترجمة من الفرنسية

نعم . . هذا هو عنوان القصة .

وفيما يلى ما حدث :

فى بغداد ، تلك المدينة الكبيرة والجميلة ، كان يعيش تاجر غنى ومحترم .

ماذا كان اسمه ؟

عندما كان يلهو تحت قدمى أمه (أليست الجنة تحت أقدام الأمهات) نادته : "حسان السعيد " . . كان شابا جميلا ، وذكيا ، وغنيا . . غنيا جدا . ولم يكن شئ ينقصه . ومع ذلك فقد قرر ذات يوم أن يتزوج .

وما أن قال حتى فعل . خطب أجمل فتاة فى المدينة .

كانت . . كانت . . كلاّ . إن الكلام يعجز عن وصفها .

الموسيقى وحدها هى التى يمكن أن تعبر عن جمالها .

وباختصار ، كانت جميلة مثل حبيبتك يا سيدى . . ومثل حبيبتك أنت أيضاً ، ومثل حبيبتك يا سيدى العزيز (وبهذه الطريقة ، أتمنى أن أرضى كل الأذواق) ودعا حسان بغداد كلها إلى وليمة . وكانت فرصة برهن فيها طباخو المدينة الأسطورية على أنهم يعتبرون بحق فى طليعة طبّاخى العالم .

وبين قطعان الأغنام ، انتشرت شائعة نحس تقول :

" لقد حانت نهاية العالم ، فقد عقد حسان العزم على القضاء على كل الخراف، وأن يحشوها بالفستق ، ويقطعها شرائح لضيوفه . . "

وفى ذلك الزفاف البهيج ، الغنى ، الفخم ، ذرفت النساء دموعاً رقيقة من الغيرة ، فى الوقت الذى اتخمن بالشراب ، والفطائر ، والمربّى المزينة بزهور الخوخ، والجوز ،

والمشمش . .

أما الصبايا ، فلم يأكلن إلا مربّى الليلـك ، والياسـمين المعقودة بالسكر، وقد أقسمن ألا يذقن شيئاً آخر غيرها ، حتـى يوم زفافهن .

دارت الرأس بالكثير من ألـوان الموسـيقى . . أمـا الشبان، فقد كانوا يقفون على أرجلهم بصعوبة من كـثرة مـا رقصوا . والخمر ، التى يحرمها القـرآن الكريـم ، صرعـت الشيوخ وكبار السن ، مثل عبد رقيق ارتمـى علـى أقدامـك ليقبلك . .

وأخيراً حان منتصف الليـل . . السـاعة المنتظـرة . النساء اصطحبن العروس إلى غرفة نومها البديعـة . وبيـن التضاحك والهزر ، خفّفنها من ملابسـها ، ووضعنـها فـوق سرير العرس ، المزين بستائر الدنتيللا . .

وذهبت المواشط يبحثن عن العريـس . وفـى صحبـة أصدقائه ، جاء حسان ، وجلس كرجل شاب ، وحكيم . . جـاء بخطى فرحة ونشطة ، لكـن دون اسـتعجال . لأن الحكيـم لا

يستعجل أبدا : لا للمقصلة ولا للزفاف ! ولأى شئ جميل يستعجل ، ما دامت الحياة نفسها تنساب كسهم ! وبدون استعجال ، جلس حسان على الكنبة ، فى مواجهة السرير ذى الستائر المحلاة بالدنتيللا . وبدون استعجال ، أصغى لتهانى أصدقائه ، وأمانيهم الطيبة . وبدون استعجال ، نهض ، وقال :

– إننى أحبيكم ، يا أصدقاء صباى ، وأقول : وداعا لحياة العزوبة .

وبدون استعجال، اتجه نحو السرير .

لكن فى تلك اللحظة ، وفجأة . . سقط السروال من حسان . وأحدث المنظر عاصفة من الضحك :

العجائز نبحن كما لو أن أحدا خنقهن . وضحكات النساء الشابات رنت كما لو كانت أجراسا . أما الرجال ، فقد انكفأوا على الأرض . . والعروس ، التى رأت كل شئ من خلف ستائر الدنتيللا ، استولى عليها سرور جنونى ، ولكى تخفيه ، راحت تحرك بيأس أساورها وحليها .

لقد أغمى على الجميع من الضحك . .

أما حسان فقد ظل فى مكانه مشلولا ، وساقاه العاريتان حمراوان من الخجل . وبـاضطراب شـديد ، تنـاول حسـان سرواله، واندفع خارج البيت . وفى الفناء الواسع ، قفز علـى أول حصان وجده ، وكان يخص بالتأكيد أحـد المدعويين . وهمزه بشدة ، ثم ركض بأقصى سرعة ، وهو يسمع ضحكـا هائلا يتبعه . .

بأية سفاسف ترتبط أحيانـا سـعادة إنسـان ! ومثـل مجنون ، اندفع حسان ، يحث حصانه بغضب ، إلى الأمام ، فى مغامرة مجهولة العواقب . .

وفى صباح اليوم التالى ، أبصر أمامه فى الأفق مدينـة دمشق. يقال إن خبز المنفى مر . ليس هذا حقا. خبز المنفـى ليس مرا ولا حلوا . لأن أرض المنفـى لا تنتـج خـبزا قـط للمنفيين . خبز المنفى ليس له طعم.

مسكين . . وبدون درهم فى كيسه ، وجد حسان نفسـه فى شوارع مدينة غريبة . فى المدينة الغريبة : كل كلب متوفز لن يلقى بنفسه عليك ، كما لو كنـت لصـا . . فـى المدينـة

الغريبة : كل باب ينتظر أن تقرعه لكى ينغلق فى وجـــهك . فـــى المدينة الغريبة : كل حجر مستعد لكى يطير فوق رأسك . .

ليس فى المدينة الغريبة سوى الأشجار . هى وحدها التـــى تستقبلك بمودة ، مادّة لك فروعها المحمّلة بـــالزهور ، وكأنـــها تقول لك : " اشنقْ نفسك " . وبرهبة ، تـــأمل حســـان المدينـــة الغريبة ، ثم مضى إلى السوق . . وهناك باع حصانه المجـــهد ، واشترى بثمنه لوزا محمصاً . وحمل الكيس على كتفيه ، متوقفـــاً عند مشربيات المنازل لكى ينادى :

– ها أنا . . جئت من بعيد . أبحث عن أسنان امرأة يمكنـــها أن تنافس فى بياضها ما معى من اللوز . . ها . . ها . . أين هنا الأسنان الأكثر بياضاً؟

وجاءه الصوت من خلف المشربيات :

– ومن يضمن لنا ألا تنكسر أسناننا تحت لوزك ؟ !

وأجاب حسان بتواضع :

–لا تخشىْ شيئاً يا سيدتى . . بمجرد أن يشاهد اللـــوز بيـــاض

أسنانك سوف ينهرس من الغيرة . وعندئذ لن يكـــون بـــك حاجة إلى تكسيره !

وما أن انتصف النهار ، حتى كان كل اللوز قد تمّ بيعه .

قام حسان بمراجعة أرباحه ، ثم اشترى " برتقالاً بدمه "

– أين إذن الشفاه الوردية التى يمكنها أن تنـــافس برتقـــالى الأحمر ؟

وأجابه الصوت من خلف المشربيات :

– هل برتقالك حقيقى كما تقول ؟

– آه يا سيدتى . . إن الغيرة ستحوّل برتقالى إلى دموع فـــى اللحظة التى يصبح فيها بين شفاهك .

ولم تكن الشمس قد انحرفت من وسط الســـماء بعـــد ، حين تم بيع البرتقال كله .

تاجر حسان فى كميات ضخمة من الفواكه والمكسرات ، واشتهر فى السوق ، وفتح له اعتماداً ، ثم ما لبـــث أن تـــرك

تجارة الفاكهة لكى يمارس تجارة المجوهرات .

وفى يوم الاثنين ، عندما تقتصر زيارة السوق على النساء فقط ، تبعاً للتقليد المتبع فى بلاد الشرق ، قام حسان ، ذو اللحية المجعدة ، بعرض بضاعته ، مبتسماً بوداعة :

– سيدتى الجميلة . . سيدتى الجميلة . . هل ترغبين فى ألا تذرفى دموعاً بعد الآن؟ اشترى إذن هذا الحلق . . انظرى أية لآلئ ؟ إنها دموع حقيقية . الدموع تجمل المرأة . هذا هو القدر . . القسمة . . اشترى هذا الحلق ، وثقى بأن الدموع لن تلمع قط فى عينيك . اشترى نعمة القدر . أليس من الأفضل أن تتلألأ الدموع فى أذنيك ، بَدَلاً من عينيك ؟ !

– سيدتى الجميلة . . سيدتى الجميلة . . يا ذات الجمال الساحر . . لا تشترى شيئاً . . اكتفى فقط بالمشاهدة . إن نظراتك ستحول زرقة هذه اللآلئ التركوازية إلى زرقة السماء . قولى لحبيبك أو زوجك أن يشترى لك " بروشاً " تركوازياً . حتى يضع فوق صدرك قطعة من السماء . .

– هذا ياقوت ، أزرق وعميق مثل البحر . وهذا ياقوت أحمر

مثل نقطة الدم . إنه يضئ فى الظلمة . سيدتى الجميلة . اطلبى من حبيبك أو زوجك أن يقدم لك هدية من هذا البحر ، أو من نقطة الدم تلك . . لكننى أنصحك أن تأخذى نقطة الدم . فإن نقطة الدم تثير من العواصف ما لا يثيره بحر بأكمله !

– سيداتى الجميلات . . سيداتى الجميلات . . وهذه لآلئ . .

– أنا أخشاها . . فإن اللآلئ تعنى الدموع !

– الصغيرة وحدها يا سيدتى . . الصغيرة وحدها . . اللآلئ الصغيرة هى التى تسبب البكاء . أما اللآلئ الكبيرة فإنها لم تبك امرأة قط .

وهكذا بالضحك والملاطفة كان يتاجر حسان . وأصبح غنيا ، وفى نفس الوقت ، معروفا فى دمشق كلها.

وبلغت أخباره إلى السلطان نفسه . الله وحده هو السلطان. لا سلطان إلا سلطان السلاطين ، وهو الله . الله أكبر.

ورغب السلطان فى أن يرى محبوب الجميع ، وينعم بآرائه وعقله . وفى أثناء المقابلة ، قال له السلطان :

– أصعب شئ بالنسبة للسلطان هو اختيار وزرائه .

فانحنى حسان بعمق قائلاً :

– لا أحد يعرف هذا أفضل منك أيها السيد العظيم . . أما بالنسبة لى فلا أعتقد فى صعوبته . فإن هذا يحدث عندنا بصورة عادية جداً . إننا نعيّن شخصاً ، أى شخص ، ونعمل منه وزيراً ، ونعلن : " أيها الناس . . هذا رجل ذكى . عليكم أن تطيعوه . وإلا . . فحذار لرقابكم ! " وبدلاً من أن نجلب على أنفسنا كلام الناس ، فإننا نختار الشخص الأكثر ذكاء ، ونعمل منه وزيراً . .

وهز السلطان رأسه :

– عجيب أن هذه الفكرة لم ترد على ذهنى أبداً . أخذ شخص ذكى ، وتعيينه وزيراً . حسان . . إنك رجل ذكى ، وقد عينتك وزيراً .

– أوه يا سيدى . . لا تتوقع منى إلا الطاعة .

أصبح حسان وزيراً كبيراً . كان طيباً ، وعادلاً ، وحكيماً . وأحبه الأخيار ، أما الأشرار فخافوه . وأعجب الجميع بقوانينه التى أملاها ، ولاحظ سكان دمشق كلهم بامتنان:

– أى وزير لنا ! إنه ليس نبيلاً ولا مشهوراً . . يكفينا أنه ذكى .

ومرت عشر سنوات .

واستدعى سلطان دمشق وزيره المفضل ، وقال له :

– حسان . . بارك الله فى اليوم الذى تركت فيه موطنك الأصلى ، وأتيت تقيم بيننا . وبارك الله فى القرآن الذى يوصينا بإكرام الغرباء . ها هى عشر سنوات قد انقضت ، وأنا أتبع فيها نصائحك ، وأنفذ مشيئتك لصالح دمشق . .

أما الآن ، فإننى أرغب إليك فى أن تصغى جيداً لكلامى، وتنفذ مشيئتى . اسمع يا حسان . . لم يعد أمامى وقت طويل

لكى أستفيد فيه من نصائحك الطيبة . فما أقصر الطريق الذى يفصلنى عن القبر ، حتى أننى لا أكاد أجد الوقت الذى أنظر فيه خلفى . . وأنا أرى أن دمشقى العزيزة سعيدة بحكمك ، وأريد أن أضمن لها هذه السعادة . . حتى آخر أيام عمرك .

اسمع يا حسان . . ليس لى وريث . وسأعطيك ابنتى العزيزة زوجة لك ، وأجعل منك سلطان دمشق . . اسمع وأطع.

عندئذ قبل حسان الأرض بين يدى السلطان ، وقال :

- لا تنتظر منى غير الطاعة ، أيها السلطان . الله وحده هو السلطان ، ولا سلطان إلا سلطان السلاطين . وهذا هو ما قاله لى :

" حسان إن مدينة دمشق رائعة . لكن وطنك هو بغداد . هناك فتيات جميلات فى العالم . لكن لا يوجد أجمل من تجاعيد الأم ! والذى يفضل أن يكون سلطان بلد أجنبى على أن يظل مواطنا بسيطا فى وطنه . . ليس أهلا لأن يكون مواطنا بسيطا فى بلده ، ولا سلطانا لبلد أجنبى "

هذا هو ما قاله لى سلطان السلاطين ، الذى ينبغــى أن يسكت أمامه كل سلاطين الأرض .

وهنا تملك سلطان دمشق غضب شديد :

– هكذا أيها الخادم تنفذ إرادة سيدك ؟ ! إننى أريد أن أجعلـك سعيداً وسأجعلك سعيداً.

وهذا هو ضعف السلاطين : يعتقدون أنهم يســـتطيعون أن يجعلوا الناس مشهورين ، وأغنياء ، وأقويــاء . . وكذلـك سعداء !

ولكى يجعل السلطان حســـاناً ســعيداً ، وضعــه فــى السجن . لكنه هرب . جهز حصانه ، وملأ كيســـه بــالذهب ، ورحل فى منتصف الليل . . إلى بغداد .

انطلق هامزاً حصانه . وحيث أنه غاب عشر سنين عن وطنه ، لم يدع الحصان يلتقط أنفاسه طوال الطريق . .

وحين برزت من خلف التـــلال الأشــعة الأولــى مــن الشمس ، رأى حسان أبواب بغداد .

وبدا له أن الأشجار لا تزهر ولا تثمر فى أى مكــــان فـــى العالم ، كما تزهر وتثمر حول بغداد .

وكذلك المآذن . . لا ترتفع فى السماء بمثل تلك العظمــــة التى ترتفع بها فى بغداد.

ونزل من فوق حصانه ، وسجد مقبلاً الأرض . وفى تلــك اللحظة كانت هناك امرأة عجوز متسولة ، تجلس فى ظل بوابـــة المدينة ، وهى تفلى شعر حفيدتها الصغيرة من القمل . وصـــاحت الفتاة :

– انظرى يا جدتى ما يفعله هذا الرجل . . إنه يأكل الأرض !

فأجابتها العجوز :

– اسكتى يا حمقاء . . إنه لا يأكلها ، بل يقبلها . ثـــم إن هـــذا ليس من شأنك. ربما كان هذا الرجل يحب وطنــــه ، وربمـــا يكون أيضاً مخموراً . . ومن الأفضل ألا يكون هــــذا أو ذاك . لكنك يجب أن تعرفى الآن . . فقد أصبحت كبيرة .

وتساءلت الصغيرة فى بلاهة :

– وكم عمرى الآن يا جدتى ؟

– عمرك . . إنك فى الحادية عشرة . فقد ولدت فى السنة التى سقط فيها السروال من حسان فى ليلة عرسه .

هنا شعر حسان أن وطنه يبصق فى وجهه . وخاطب نفسه :

– الله أكبر . آه . . الله أكبر ، وكريم ، ورحيم . إنهم يؤرخون باليوم الذى سقط فيه سروالى . وها هى طفلة صغيرة ، تجهل عمرها ، تعرف أنه منذ عشر سنوات . . سقط من حسان سراوله !

لقد عشت وجودين . وأصلحت حياتى . . من بائس مسكين إلى إنسان غنى . ووصلت إلى قمة السلطة ، وحكمت بلدا ، وأمليت قوانين حكيمة ، وجعلت دولة بأكملها سعيدة . وكان من الممكن أن أكون سلطانا . . وأول امرأة فقيرة أقابلها، تبحث عن القمل فى شعر حفيدتها الصغيرة، لا تستطيع أن تنسى أنه منذ عشر سنوات قد سقط سروالى !

قفز حسان إلى سرج الجواد ، وحول وجهه ، واندفع

فى المغامرة . .

هذا هو ما يعلمه عن الناس .

لكن الله وحده يعلم ما فى أعماقهم .

الشمعــدان

للكاتب الروسي: تشيكوف
مترجمة من الفرنسية

وضع ساشا سيمرنوف ، الابن الوحيد لأمه ، تحت إبطـــه شيئا ملفوفا في العدد ٢٣ من جريدة أخبار البورصة ، ثـــم مــد رقبته ، ودخل إلى عيادة الدكتور كونشـــيلكوف ، الــذى صـــاح عندما رآه :

– حسنا يا صغيرى . . بم نشعر الآن ؟ أية أخبار طيبة تحملها؟

أغمض ساشا عينيه ، ووضع يده على صـــدره ، وقـــال بصوت خفيض:

– أمى تبعث إليك بتحياتها . وقد كلفتنى أن أشكرك – أنا الابــن الوحيد لها – لقد أنقذت حياتى يا دكتـــور . . شـــفيتنى مـــن مرض خطير . ونحن الاثنان لا نعرف كيف نعـــبر لـــك عـــن

امتناننا .

قاطعة الطبيب :

- لا تتحدث عن هذا يا صغيرى . . لقد فعلت ما يفعله فى مكانى أى إنسان آخر.

- إننى الابن الوحيد لأمى . ونحن فقراء . وبالتأكيد ، فى حالة لا تسمح لنا بأن ندفع ثمن العلاج . وهذا يمزقنا يا دكتور . . ومع ذلك ، فإن أمى وأنا - الابن الوحيد لها - نتوسل إليك أن تقبل - كرمز لعرفاننا بالجميل - هذه الهدية القيمة ، من البرونز القديم . . هذا العمل الفنى الرائع !

احتج الدكتور :

- إنك مخطئ تماما . . على أى شئ كل هذا ؟ !

- كلا . . لو سمحت . . لا ترفض (وفتح ساشا اللفة) فإن رفضك سوف يؤلمنا ، أمى وأنا . . فهذا شئ جميل من البرونز القديم . . لقد أحضره إلينا أبى منذ زمن، ونحن نحتفظ به كذكرى عزيزة . كان أبى يشترى البرونز القديم ،

ثم يبيعه للهواة . . والآن نحن نواصل هذه التجارة البسيطة : أمى وأنا . .

ثم رفع ساشا الهدية ووضعها على مكتب الطبيب . كانت عبارة عن شمعدان ، متوسط الحجم ، من البرونز القديم ، مصنوع بمهارة . ومن القاعدة ينهض تمثالان لامرأتين عاريتين تماما ، وفى وضع لا يمكن وصفه . أما الوجهان ، فكانا يبتسمان فى غنج واضح ، وعلى نحو يظهر أنهما غير قادرين على حمل الشمعدان ، وأنهما على وشك أن يقفزا من القاعدة لكى ينطلقا إلى الحجرة فى رقصة عربيدة لا يمكن تخيلها !

وما كاد الدكتور يرى الهدية ، حتى حك أذنه من الخلف بهدوء ثم سعل ، ومخط بدون حماسة ، وغمغم قائلا :

– أجل . . هذا فى الواقع شئ جميل . لكن . . ماذا أقول . . إنه إباحى أكثر من اللازم . . إنه ليس عاريا فقط . . بل أسوأ ! !

– لأى سبب ؟

– الشيطان نفسه لا يمكن أن يتخيل ما هو أكثر شناعة من

ذلك . . إن وضع مثل هذا الفحش فوق المكتب سوف يدنس شقتى كلها !

قال ساشا مدافعا :

– أى تصور غريب هذا الذى لديك عن الفن يا دكتور ! إنه قطعة فنية . تأمله جيدا. هذا الجمال ، وتلك الأناقة تملأ النفس بالتقدير . إنه يأخذ اللب . . ونحن بتأملنا هذا الكمال الفنى ، ننسى الأشياء الأرضية . . انظر أى حركة يصورها ، وأى تعبير دقيق يكشف عنه !

قاطعة الدكتور

– إننى أفهم كل هذا جيدا يا صديقى . لكن لى أسرة . وأطفالى يلهون هنا ، وتأتى لزيارتى سيدات محترمات . .

– بدون شك . إذا أخذنا وجهة نظر الشخص العادى ، فإن هذه التحفة الفنية ستظهر من زاوية أخرى تماما . . لكن يا دكتور ، ضع نفسك أعلى من مستوى الشخص العادى . ثم بالإضافة إلى ذلك ، فإن رفضك للهدية سوف يؤلمنا كثيرا . أمى وأنا . . الابن الوحيد . لقد أنقذت حياتى ! ونحن نقدم

إليك أغلى ما عندنا . وما يؤسفنى أكثر إنما هو عدم وجـــود الشمعدان الآخر الذى يكون مع هذا الشمعدان : زوجا رائعا !

– شكرا يا عزيزى . . إننى شاكر لك من أعماقى . تحياتى إلى والدتك . ومع ذلك أرجو أن تقدر بنفسك أن أطفالى يلعبـــون هنا . وتأتى لزيارتى سيدات محترمات . وأخيرا . . فســـوف أحتفظ به . من المستحيل أن أشرح لك السبب . . الأســـباب التى . . التى . .

–لا شئ يستحق الشرح . ضع الشمعدان هنا ، قريبا من فـــازة الزهور . آه . . خسارة كبيرة ألا يكون هنا الشمعدان الآخر . كم أنا آسف لذلك ! إلى اللقاء يا دكتور . .

بعد رحيل ساشا ، تأمل الدكتور الشمعدان طويلا ، وحك من جديد أذنه من الخلف، وفكر :

" من المؤكد أنه تحفة فنية رائعة . . لكن من المؤسف أن أقذف به . ومستحيل أن أحتفظ به لدى . آه . . إنها مشـــكلة . . لمن أقدمه ؟ "

وبعد أن فكر طويلا ، تذكر صديقـــه العزيـــز ، المحـــامى

(كريبونوف) ، الذى قدم له خدمات قانونيـــة عديـــدة . وقـــرر الدكتور :

" هذا رائع . لأنه باعتباره صديقا ، سيكون من الإحراج أن يقبل منى نقودا على أتعابه ، وعندئذ يصبح من اللائـــق أن أقدم له هذه الهدية . سوف أحمل له تلك التحفة الشـــيطانية . خاصة وأنه أعزب ومتحرر . . "

وبدون وعـــى ، ارتـــدى الدكتـــور ملابســـه ، وأخـــذ الشمعدان ، وذهب إلى كريبونوف . وعندما وجده صاح :

– مرحبا يا صديقى الأثير . ها أنا ذا . . جئت أشكرك علـــى خدماتك الجليلة لى . أنت لا تقبل النقود منى . حســـنا . . اقبل إذن هذه التحفة . هاك أيها العزيز . .

وما أن رأى المحامى الشمعدان ، حتى صاح بحماسة :

– أوه . . إنه مشهور !

ثم استغرق فى الضحك قائلا :

–هذا ما يحول قديسا إلى ملعون ! رائع ! بديع ! أين عـــثرت

على تلك الجوهرة ؟

ثم بعد أن عبر عن حماسته ، ألقى المحامى نظرة خوف ناحية الباب ثم اقترب من الدكتور قائلا :

– فقط يا رفيقى ، أرجوك أن تحمل هديتك ، فإننى لا أريدها .

وهنا صاح الدكتور :

– لماذا ؟

– لأننى أستقبل أمى هنا . وكذلك الزبائن . . ثم . . ثم إن هذا مزعج بسبب الخادمة .

– كلا . . كلا . . سوف يكون هذا العمل غير ودى تماما من جانبك . إنه تحفة . انظر هذه الحركة . . وهذا التعبير . كفانا جدالا . . فإنك تهيننى . .

– لو كان له فقط بعض الملابس . . أو حتى ورقة عنب تستره !

لكن الطبيب هز رأسه ، وأسرع بالاختفاء من شقة كريبونوف ، سعيدا بأنه قد تخلص من هديته ، وعاد إلى منزله .

لكن المحامى عندما خلا لنفسه ، راح يفحص الشمعدان ، ويتحسسه من جميع النواحى ، على غرار ما فعل الطبيب ، وفكر مليا :

" ماذا يفعل بتلك الهدية ؟ إنها فى الواقع تحفة رائعة . ومن المؤسف التخلص منها . لكن الاحتفاظ بها مع ذلك غير لائق . الأفضل إذن أن أقدمها لأحد . الليلة أقدمها هدية إلى الممثل (شايكن) . فهو الشخص الذى يحب التحف التى من هذا النوع. وسوف يكون هذا عملا فى موضعه ، حيث أنه سيقدم الليلة عرضا مسرحيا خاصا به . . "

استقر المحامى على تلك الفكرة . ثم قام بتغليف الشمعدان بعناية ، وقدمه إلى الممثل شايكن .

وطوال السهرة ، ازدحمت غرفة الممثل بالأصدقاء الذين راحوا يبدون إعجابهم بالهدية . ومن بين الزحام ، سمعت تعليقات حادة ، وضحكات مكتومة تشبه صهيل الخيل . .

وعندما اقتربت ممثلة من باب الغرفة ، وسألت : هل

يمكن الدخول ؟ اندفع صوت الممثل المبحوح :

– كلا . . كلا يا عزيزتى . . أنا غير مرتد ملابسى .

وبعد العرض ، هز الممثل كتفيه ، وفرد ذراعيه ، وقال :

– حسنا . . والآن ماذا أفعل بهذه المصيبة ؟ إننى أسكن عند عائلات وأستقبل فنانين . وليست هذه صورة فوتوغرافية حتى يمكن إخفاؤها فى دولاب !

ونصحه عامل الماكياج قائلا :

– إذن بعه يا سيدى . . هناك فى القلعة امرأة عجوز تشترى البرونز القديم . اذهب إلى هناك واسأل عن السيدة سيمرنوف . . الناس كلهم يعرفونها .

استمع الممثل إلى النصيحة .

وبعد يومين . . وبينما كان الدكتور كونشيلكوف يجلس واضعا يده على جبهته، ومستغرقا فى التفكير حول حامض المرارة . . انفتح الباب فجأة ، ودخل ساشا سيمرنوف .

كان يبتسم مزدهرا . ووجهه كله يوحى بالسعادة . وفى يده ، كان يحمل شيئا ملفوفا فى ورقة جريدة . وبدأت أنفاسه تهدأ :

– دكتور . . تصور مدى فرحتى . . وأية سعادة بالنسبة لك . لقد نجحنا فى الحصول على الشمعدان الآخر لشمعدانك ! إن أمى سعيدة للغاية وكذلك أنا – الابن الوحيد لها – لقد أنقذت حياتى . فخذ إذن يا دكتور ، خذ . .

وبارتجاف من يعترف حقيقةً بالجميل ، وضع ساشا الشمعدان أمام الطبيب ، الذى فتح فمه ، وأراد أن يتكلم . . لكنه لم يستطعْ أن يخرج صوتاً . كان قد فقد القدرة على النطق !

الوظيفــة السهلــة

للكاتب الفرنسى : جو فارنا
مترجمة من الفرنسية

أسكن فى قلب مدينة القاهرة . شارع المدابــغ . منــذ وقت ما ، أعتقد أن الشارع قد تغير اسمه (أصبح الآن شــارع شريف) . لماذا ؟ لا أدرى . لكن النــاس اســتمروا يســمونه المدابغ . هذا اكثر راحة .

كل يوم أغادر المنزل فى الساعة الثامنة . أحيانــاً فــى الثامنة والربع . عندما أصل إلى الوزارة ، لا يكون علىّ سوى نصف ساعة فقط تأخير ! آخــرون يكــون عليــهم ســاعة . الرؤساء أنفسهم لا يصلون قبل الساعة الحادية عشرة .

فى الشارع ، وفى مواجهــة المــنزل ، يوجــد " بــار أمريكانى " . فى العادة عندما أخــرج فــى الصبــاح . تكــون واجهته الحديدية مغلقة . الواجهة كلها سوداء .

وفى بعـــض الأحيـــان ، يخـــرج الجرســـونات صنـــاديق الزجاجات الفارغة . أما اليوم فالواجهة الحديدية نصف مرفوعة . وهناك ورقة من الكرتون معلقة فى الواجهة . لم أرها بـــالأمس . اقتربت . أقرأ :

"مطلوب شخص حسن المظهر لوظيفة سهلة بأجر مجز".

إعلان مضحك . أعود مسرعاً إلى الرصيف . إننى كثـــيراً ما أتجول فى الصباح. أقوم برياضة المشى ، وخاصة عندما يكون الجو ملائماً . لا ينبغى أن أصل إلى عملى متأخراً عـــن العـــادة . وظيفة سهلة . لابد أنها مثيرة . أجر مجزٍ !

كم يمكن أن يدفعوا لهذه الوظيفة ؟ أعود ناحيـــة البـــار . الأمر يستأهل المحاولة.

الصالة طويلة . ضيقة . خالية تماماً . إنها مقبضة . بـــار فارغ . كل هذه الزجاجات التى تلمع فى الأضـــواء ، تبـــدو الآن رمادية ، ومتسخة . وهذه المنضدة الطويلة الفارغـــة . لا أحـــد ينحنى فوقها . وهذه الثُريّات العالية جداً مضحكة . هناك شـــخص على الخزينة . سيدة .

- أريد أن أرى صاحب المحل .

تجيب السيدة :

- أنا صاحبة المحل . لأى موضوع ؟

- بخصوص الإعلان .

السيدة تتفحصنى . ترمقنى من الرأس إلى القدم .

- يبدو عليك فعلاً أنك حسن المظهر . هل تتحدث الإنجليزية والفرنسية والعربية ؟ أنا أعتقد أنه يمكن أن تشغل الوظيفة.

- والعمل يا مدام . . مم يتكون بالضبط ؟

- إدارة الاسطوانات . .

لقد قالوا لى دائماً إننى حسن المظهر ، وقد انتهيت بتصديق ذلك . لكن إدارة الاسطوانات ؟ !

- أنا لا أفهم تماماً .

تشرح لى السيدة :

– عندنا هنا ماتياتيفون (جهاز اسطوانات) كهربائى . ومهمتك أن تختار الاسطوانات، وتضعها على الجهاز عندما يعمل . .

الواقع أنه بالنسبة لوظيفة سهلة ، ليس هذا صعباً على الإطلاق . لكننى نسيت سؤالاً هاماً . وبقدر كبير من التعثر ، سألت :

– وبالنسبة للأجر يا مدام ؟

– خمسة عشر جنيهاً فى الشهر . . خمسون قرشاً فى اليوم . هذا أجر طيب . ستعمل من الخامسة عصراً حتى العاشرة مساء . كل أيام الأسبوع . ومن النادر جداً أن ترحل بعد العاشرة مساء . إنه عمل سهل . ثم إنه سيكون لديك علاوة على المرتب الشهرى : بقشيش الزبائن .

يؤسفنى هذا . أحس بالعار .

– أشكرك : سأفكر فى الأمر . إلى اللقاء يا مدام .

ها أنا فى الشارع . فى اتجاه الوزارة . منذ خمس عشرة سنة وأنا موظف . مرتبى لا يتجاوز عشرة جنيهات وعدة قروش

بالضبط . لأنه ينبغى أن نحسب الاستقطاعات والضرائب والإيجار وكل المصاريف الأخرى . إننى أعمل من الساعة الثامنة صباحا إلى الساعة الثانية ظهرا . حقيقة لا أقوم بعمل كبير . لكننى لست أحمق . إننى محترم . يلزمنى مع ذلك أكثر من عشرة جنيهات فى الشهر . أنا محترم فى الظاهر فقط . أعتنى كثيرا بملابسى . هذا حق . قمصانى قلبت ياقاتها وأكمامها . حتى ذلك القميص الذى أرتديه يبدو أنه نظيف لكن ياقته قد استهلكت من الداخل . يجب إلقاؤها بعد غسلة أو اثنتين .

عشرة جنيهات فى الشهر . وقريبا جدا أبلغ الأربعين . يلزمنى شراء رباط عنق جديد . ذلك الرباط الأزرق الذى رأيته فى الشهر الماضى فى شارع قصر النيل من الحرير الطبيعى ثمنه ٢٥٠ قرشا . يلزمنى عمل ذو أجر مجز . خمسة عشر جنيها لإدارة الاسطوانات . . هذا غير ممكن !

ها هى الوزارة . لا شك أن تلك الجولة أراحتنى . الساعة الآن التاسعة تقريبا. ماذا سيقولون لى ؟ بماذا أجيبهم؟ هل سيجرؤون أن يقولوا شيئا ؟ إننى أعمل كثيرا بالنسبة

لعشرة جنيهات فى الشهر . إلى متى أظل أجدّف هكذا ، وأسبح فى هذا الصمغ ؟ !

ما أقذر هذا الحىّ ؟ شوارعه الضيقة . الجو اليوم ملئ بالرطوبة . وبصعوبة أكاد أستنشق . ها هو مكتبى .

– صباح الخير يا سادة .

تحية انتصار متحررة . لا ينبغى أن يكون الإنسان مخلصاً . لا أحد يستأهل . لكن يجب أن يأخذ المرء حذره . وألا ينخدع . ضحك قوى بدون سبب ومن وقت لآخر، أفكر بعمق ، متخذاً مظهراً جاداً . وفجأة . . مظهر الأبله المشغول جداً . .

من وراء الملفات ، أنظر حولى . دائماً نفس الوجوه . من المؤكد أن الحال لا يكون كذلك فى بار . دائماً نفس الجدران . رؤوس غربان وقردة وبجع وبوم . . رؤوس صلعاء ، ووجوه نحيلة ، بائسة ، منهكة . . طيور مرتجفة من الخوف .

– لماذا وصلت اليوم متأخراً ؟

– كنت مريضاً . .

اشكرونى مع ذلك أننى أتيت . أما الزميل الذى يجلـــس إلى جوارى ، فإننى أقصّ عليه حكاية الإعـــلان . لا يريـــد أن يصدقها . لا أعطى له العنوان . ربما يكون طامعاً فيها ، ويأخذ مكانى .

إذا عملت فى هذا البار ، فإن ذلك لن يضايقنى فى شـــئ على الإطلاق . إنه فى مواجهـــة المـــنزل . يكفـــى أن أهبـــط السلالم . أية حياة ضيقة أعيش فيها ؟ ! لقد وُلدت مثل دودة ، وكبرت مثل خنزير ، ومن قبل أن أبلغ العشرين وأنـــا أجرجـــر هيكلى على الأرض . وذات يوم سأموت . سأموت دون ضجـــة ودون طبول . وحيداً . فى الصمـــت. كطـــائر . لا أحـــد يعلـــم بموتى.

خمسة عشر جنيهاً للعمل بعد الظهر . إن هذا يجمع لـــى خمسة وعشرين جنيهاً فى الشهر . إننى فى كل صباح أســـأل نفسى عما أفعله خلال الأربع والعشرين ســـاعة القادمـــة . أى سعادة تخبئها لى الأربع والعشرون ساعة ؟ لا شئ . لا شـــئ على الإطلاق !

وفى المساء أنام . أنام وحيداً ، مثل حيوان ، من التعب . أتلاشى فى الظلام . لحسن الحظ أن النهار يكون دائمـــاً أفضـل . لكن بعد ذلك بعد عشر ساعات ، أبدأ فـــى الإحســـاس بـــالملل . العيون خادعة . والناس الذين يبتسمون مزيفـــون . ابتســـاماتهم مبتذلة .

لقد أوقعوا علىّ فى العمل عقوبات كثـــيرة . كــم ؟ عــدم انتظام فى العمل . تأخر عن المواعيد الرسمية . افتقـــاد احـــترام الآخرين !

أما الزيادة فى المرتب فلم أرها أبداً .

إدارة الاسطوانات . هذا أمر معقد . الموظف الذى يجلـس بجوارى سخر منى . قال لى :

– هذا طبيعى . ستصبح رئيس الأوركسترا فى البار !

حقيقة أن الموسيقيين يتقـــاضون الآن جنيـــهين وثلاثـــة وخمسة فى الليلة . لكن خمسة عشر جنيهاً فى الشهر : هذا ليس ممكناً . لابد أن فى الأمر شيئاً ، ولم تشأ المدام أن تصرح لى به!

ربما يمارسون الدعارة فى ذلك البار ؟ كلا . . فقد كان فى مقدورى أن أعرف. لقد مرّ الآن ما يقرب من ثمانى سنوات وأنا أسكن هنا ، تماماً فى مواجهة البار . ثمانى سنوات لم أتلق فيها علاوة من العمل . كان ينبغى أن أحصل على جنيهين علاوة فى السنة . وقد توفيت أمى منذ وقت طويل وأبى كذلك توفى منذ عامين . وأنا دائماً هنا ، فى هذا المنزل . نعيش كلنا معاً ، إخوتى وأخواتى ، متكومين بعضهم فوق بعض.

ماذا آكل عندما أعود ؟ أيضاً كوسة بالبصل ، وصلصة الطماطم . إننى أقشعر من الدهون ، ومن صلصة الطماطم ، ومن البصل . ولا أحبّ الكوسة . عندما كنت صغيراً ، لم أكن أستطيع ابتلاعها . . ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً .

بعد مغادرتى العمل ، اشتريت بخمسة قروش " جبنة رومى " . لن آكل الكوسة. لكن مثلما فى العمل تماماً . نفس الوجوه فى المنزل . على المنضدة لا يتكلم أحد . ولكى لا نفسد على أنفسنا الجلسة ، ينبغى علينا أن نجعل الطفل الصغير يتمخط . . وهو دائماً يتمخط . إنه ابن أختى . لم تعد لدىّ

الشجاعة فى العراك مع أحد . الجو حار . متى يأتى الشتاء إذن ؟

فى الساعة الخامسة ، أنـــزل مســرعاً . أدخــل " البـــار الأمريكانى ". ها هى صاحبته . وإذا لم تكن قد غـــيّرت رأيـــها ، فماذا ستقول لى ؟ ربما تنتظر منى خدمات أخرى غير تلك التـــى حدثتنى عنها فى الصباح . كلا . . إنها ليست من هذا النوع .

– مساء الخير يا مدام . . لقد فكرت .

تتفحصنى مرة أخرى من الرأس إلى القدم .

– أعتقد أن العمل سيناسبك . ثم . . إنك تتكلم الفرنسية جيداً .

مارست عملى فى نفس اليوم . توجد ٦٠٠ اسطوانة فـــى المجموعة . تانجو يونانى ، أرجنتينى ، عربى ، فوكسى تـــرو ، فالس ، تينو روسى ، أغانى فرنسية وإيطاليـــة ، عبدالوهـــاب ، وأوبرتيات . . بالتدريج ، أصلحتها وصنفتها . إننى بالطبيعة أحب النظام . وأحب الموسيقى كذلك . وبالنسبة لخمسة عشر جنيـــهاً فى الشهر . ليس هذا عملاً صعباً .

عندما يطلب منى شخص أغنية ما ، أضـــع لـــه علـــى الجهاز أغنية أخرى قريبة جدا منها ، حين لا تكـــون الأغنيـــة المطلوبة متوافرة لدى . مثلا : العشـــاق يطلبـــون التـــانجو . والتانجو هنا منذ ستة أشهر . أما ســـكارى العاشـــرة مســـاء فيحبون أن يسمعوا المارشات العسكرية . وهـــؤلاء يدفعـــون أعلى بقشيش . والعشاق أيضا . . إنهم يحبون الكمنجـــة فـــى المساء .

ها هو العجوز الذى يشرب البيرة ما زال هنا . إنـــه لا يشرب غيرها . ثلاث زجاجات فى الليلة . مع كل زجاجة ، يعيد طلب اسطوانته المفضلة . دائما هى هى . إنها من أجل حـــب قديم . هكذا قالت لى عنه صاحبة العمل .

صاحبة العمل جادة جدا . وباستثناء الأشخاص ، الذيـــن يجب أن نطردهم من البار ، من وقت لآخر ، تسير الأمور على ما يرام. البار يكسب. صاحبة العمل مسرورة. امـــرأة طيبـــة . إنها فرنسية . من الريف الفرنسى . قدمت إلـــى مصـــر منـــذ عشرين سنة . ونحن نتفاهم أنا وهى جيدا . وهـــى مســـرورة منى . إنها أليفة ، وتثق بى . لكنها ليست صغيرة جدا . هـــذا

حق . وأنا كذلك . مظهرها رقيق وطيب . لقد فقدت أمى منذ زمن طويل . العمل يسير على ما يرام . بارنا يقع فى قلب القـــاهرة . والحرب انتهت . ولم يعد يفد علينا الكثير من العسكريين . أنا لـم أحب أولئك العسكريين قط . إنهم فظـــاظ . . ومـــن المؤكـد أن صاحبة العمل كانت لها مغامرات ، وإلا لما كانت هنا . . عندهـــا حق. كل النساء لهن ماضٍ. ما أهمية ذلك ؟ إننى بحاجة لامـــرأة وأنا متأكد أنها ترغب فى ذلك . سأصبح صاحب العمـــل . لسـت أكثر شراً من غيرى . ومظهرى محترم.

إننى . . الآن . . أغير رباط العنق كل يوم . ولى علاقـات كثيرة . مازلت دائماً فى الوزارة . وأحب الوظيفة السهلة !

صفحـــة الـــوفيـــات

للكاتب الفرنسى : ميشيل أرّيفية
مترجمة من الفرنسية

لقد نجحت حتى الآن فى حياتى . مَن يعترض على ذلك؟ ففى سن الثانية والخمسين أصبحـــتُ واحـــداً مـــن الأســـاتذة المعدودين فى الجامعات الطبية . ومن فترة قصيرة جداً أصبـــح الطريق أمامى ممهداً للحصول على أعلى رتبة فى الدرجة التى أشغلها . ثم لم تبق إلا ســـنة أو ســـنتان ، وأغـــدو ذا مكانـــة استثنائية فريدة : أكاديمية الطب ! أجل ، فقد بدأت أفكر فيـــها ، مع أن تخصصى- الذى هو الأمراض العقلية والنفســـية لـــدى الأطفال ، وليس التحليل النفسى الذى أكرهه وأحتقره - يعتـــبر بالأحرى عقبة . لكن على أى حال ، مازال الوقت أمامى مبكراً. ولتقديم ترشيحى مع ضمان فرص النجاح ، ينبغى توافر عـــدة علاقات صداقة مع الزملاء ذوى النفوذ . وحتى الآن، لم أفعـــل شيئاً بالنسبة إلى ما تسرب إلى من عروض . لكننـــى أرهـــف

السمع جيداً. وفى العادة ، سوف يحدث هذا بعد عدّة شهور فقط . عندئذ ينبغى القيام بحملة دعائية مكثفَة . وأنا لا أرفض هذا النوع من الإجراءات.

من الطبيعى أنه لم تعد توجد لدىّ أىّ هموم مالية . ومن ناحية أخرى ، فلم يكن لدىّ قط مشاكل خطيرة من هذا الجانب . لكنّ الذى كان يتعيّن علىّ ، منذ البداية فى ممارسة مهنتى ، أن أعيش فى مستوى حياة زملائى . ومع ذلك ، فقد سبقتهم أحياناً فى شراء سيارة " سبور " على آخر موضة ، وقارب ، وحتى موتوسيكل كبير لم أتمكن أبداً من السيطرة عليه ، ثم تنظيم حفلات استقبال خاصة ، وفخمة ، وأحياناً مبتذلة ، والقيام برحلات بعيدة جداً . . وهذا كله كان يضطرنى ، وخاصة منذ عدة سنوات ، أن أزيد قليلاً من عدد الاستشارات الطبية الخاصة التى أقوم بها !

لكننى أواجه الآن ، ودون أدنى صعوبة ، كافة مصروفاتى : شقة ١٧٠ متراً مربعاً فى الحى السادس عشر بباريس ، فيللا كبيرة فى نانسى ، شاليه فى ميربيل لا أذهب إليه إلا مرة واحدة فى العام لكى أتحقق فقط من أن مستواى فى

التزحلق على الجليد لم يتدهور بعدُ بصورة واضحة . وفي الوقت الذى بدأت فيه بالتدريج أفضل مغادرة شارع موزار بباريس إلى منتجعات سولونى أو الألب ، فإن ما راح يضايقنى هو عدم توافر جرائد باريس بالانتظام المعهود . وهذا يسبب ثغرات مزعجة جداً فى وثائقى . ويكفى أنه فى أثناء غيابى عن باريس تتراكم فى منزلى أعداد الجرائد التسعة التى تصلنى من الأقاليم . وهكذا يلزمنى ، عند عودتى ، وقت طويل لفتحها ، وقراءتها ، ودراستها ، وتصنيف المقالات التى تهمنى منها . .

أما زوجتى فقد ساعدتنى كثيراً فى مهنتى . فهى التى تنظم ، مرة على الأقل فى الشهر ، حفل استقبال فاخر ، لا تقتصر فيه على دعوة الزملاء فقط ، وإنما ندعو إليه أيضاً رجال أعمال ، وشخصيات من الوسط الفنى والأدبى ، وأحياناً رجل سياسة، من حزب الأغلبية بالطبع . والواقع أننى أحتفظ بعلاقات ممتازة مع الحزب الجمهورى. وقد حدث من عامين أنهم دعونى لكى أرشح نفسى فى صفوفهم . وكان من الواجب أن أقبل ، لأنه فى تلك الأثناء ، اقترح اسمى للحصول على وسام الشرف. وجرت الأمور بسرعة . فقبل توقيع القرار ، عدلت عن فكرة الترشيح نهائياً . لقد كان من المؤكد أن أحصل

على الوسام لو أن عدولى عن الترشيح قد تأخر قليلاً . ومنذ عدة أسابيع ، تستحثنى زوجتى علـــى معـــاودة الإجـــراءات اللازمـــة للحصول على وسام الشرف . إن حلمها الآن قد أصبح ينحصـــر فى حصولى على هذا الوسام ، مع انتخـــابى فـــى الأكاديميـــة . لكنها ، فيما يبدو ، متعجّلة جداً بالنسبة لهذا وذاك .

أنا فى صحة جيدة . وعلى الأقل ، هذا ما يؤكده زملائـــى الأطباء كلما ذهبت لاستشارتهم حول علامة أو أخرى من علامات الخطر " أوه . . . إننـــى أتمنـــى بروســـتاتا مثـــل التـــى لديـــك " أو " قلبك . . . إنه ممتاز . توقّفْ فقط عن التدخيـــن ، وســـتكون مطمئناً لمدة ثلاثين سنة قادمة " . . كلمات أعلم جيداً ما تـــهدف إليه ، وهو أن تجعلنى أحتفظ بتوازنى . إنها لا تلتزم بشئ . فهى مصنوعة ، بل إنها تقال فى جو المنافسة المعروف . وعلى أيـــة حال ، فهى تُطمئن للحظات . .

أما بالنسبة إلى علاقتى الزوجية ، فليس لدىّ بعدُ همـــوم خطيرة . لكننى أضطر من وقت لآخر أن أساعد نفســـى ببعـــض المثيرات الخيالية التى ربما لا يليق التصريح بها . ومـــع ذلـــك ، فإن اليوم – الذى تصبح فيه مثل هذه الأمور عديمـــة الفعاليـــة –

يقترب. وعموماً ، فإن الانخفاض التدريجي للرغبات الجنسية له جانب طيب : فهو يجعل الحياة أقل اضطراباً ، وأكثر راحة ، وبالجملة : يجعلها حياة سعيدة.

أنشر ، مرة أخرى فى السنة على الأقل ، مقالة علمية مختصرة فى إحدى المجلات التى لى حقوق فيها . فأنا عضو فى هيئة تحكيم مجلتيْن منها ، وهذا يتيح لى ، على أى حال ، إمكانية نشر أتفه الكتابات . لكننى لا أذهب إلى هذا الحد . فالذى يرضينى فقط هو أن أتحقق بصفة دورية من أن إيقاع نشرى يظل متوازناً مع معدّل نشر زملائى . وربما يحدث بالتدريج ، وابتداءً من سن معينة ، وخاصة من درجة علمية معينة ، أننا لا ننشر شيئاً . إن بعض الزملاء يسمحون لأنفسهم أن يضعوا أسماءهم على مؤلفات مساعديهم ، بل إنهم يتفاخرون بأنهم قد سمحوا لهم بمشاركتهم فى التوقيع على العمل المنشور . لكننى شخصياً لم أسمح لنفسى بعدُ بهذا العمل . إن كتابى السابق " دراسة للتحليل النفسى – التربوى الطبى للمعتوه المتوسط" يكفى – بإعادة طبعاته المتتالية – للحفاظ على سمعتى العلمية التى تبدو لى كافية . لأننى فى الواقع لا أمتلك الوقت الكافى للقيام بعمل حقيقى آخر فى مجال

التأليف : إننى مشغول جداً بتصنيف مـــا أقطعـــه مـــن صفحـــات الجرائد ، بل إننى لا أكاد أتمكن من ذلك على النحو المطلوب . إن موضوع هوايتى يدهش من يسمعه . أو هذا على الأقل ما تزعمه زوجتى .

النجاح . . لقد تحدثت عنه . ومع ذلك ، فإن كل شئ فـــى حياتى ليس وردياً . هناك بصفة خاصة مقابلة الأطفال المرضـــى . وأنا لا أرثى لهم . فباستثناء بعض الحالات ، لا يبـــدون تعســـاء جداً . ومن النادر أن يعانوا من مرض فيزيقى . لكن ما يؤرقنـــى حقيقة هو ذلك الشـــعور بـــالعجز الكـــامل الـــذى ينتـــابنى فـــى مواجهتهم . وهنا يرتفع صوت الأحاديث المتكلفـــة التـــى ينبغـــى إلقاؤها – لكى لا يوحى الموقف باليأس الشديد – أمام آبائهم . لقد أصبحت هذه الأحاديث تقريباً متشابهة ، لأنه لا يكاد يوجد منـــــها أكثر من أربعة أو خمسة أحاديث . وأنا متأكد مــــن أن زملائـــى الأطباء فى نفس التخصص يستخدمون نفس العبارات مع فـــوارق بسيطة جداً . ولا يقتصر ذلك على الألفاظ ، وإنما يشـــمل أيضـــاً الحركات واللهجة . لكأنى الآن أصغى لهذا الحديث الأحمق الـــذى ينساب على شفتىّ مثل الصنبور الذى يخرّ !

هناك أيضا تلك اللحظات الخاطفة مـــن العـدم ، التـــى ألاحظها من وقت لآخر ، وبقدر من الدهشة يـــتزايد فـــى كـــل مرة . فعندما أتابع فكرة ما ، ألاحظ – على مدى أجزاء قليلـــة جدا من الثانية – أنها تهرب منى . ومع ذلك فـــهى لا تـــترك ذهنى . . أجل هذه هى الكلمة الوحيدة التى يمكننى اســتخدامها للإشارة إلى حركة ذلك الحشد الهائل المتناثر فى تلافيف المـــخ البارد . وأكثر منها هروبا ، ذلك المكان الخالى من الذاكـــرة . إننى أعلم جيدا أن هذا كله لا معنى له . وبالتالى فأنـــا أقـــاوم ذاكرتى، وأحاول إزالة هذه الأشياء منها بأسرع وقت ممكـــن. ومن الطبيعى ألا تظهر هذه اللحظات القصيرة من العـــدم فـــى أحاديثى ، وهذا على الأقل ما أفخر به ، أود فـــى محـــاضراتى التى ألقيها على الطلاب ، الذين لم تعد تربطنـــى بـــهم علاقـــة حميمة ، وبالتالى فإننى قد أفشيها أحيانا إلى زملائى من نفـــس العمر ، والذين تبدو عليهم نفس الأعـــراض : علامـــة بدايـــة الضعف ، ظل من الحيرة والتردد فى النظر ، ثم سواد خفيـــف تحت الجفنين . . وكل ذلك يتيح لـــى أن ألاحظـــها وأصنفـــها بسهولة فى أفراد جيلى .

لقد أضعت وقتاً طويلاً فى اكتشاف التسلية ، القريبة من القلب ، والتى أشغل بها نفسى . ومن الغريب أن ما يوجد حولى من ألعاب مثل البريدج ، والجولف ، وبعض الرياضات الأرستقراطية الأخرى - لا تثيرنى أبداً . وهكذا لا يعود الزمن لأكثر من ثلاث سنوات فقط حين اكتشفت هوايتى المفضلة . وهى تشغلنى بالتدريج على نحو مُرْضٍ تماماً . لكن زوجتى بدأت تقلق من انكبابى عليها بصورة واضحة جداً ، وكم بذلت جهداً شاقاً لكى تبعدنى عنها ، أو لكى تصعّب علىّ ممارستها . وعبثاً لم تثمر جهودها فى هذا الصدد . لكنها ما زالت مستمرة فى الإلحاح على أن تظل هذه الهواية " سرّاً " لا يعرفه أحد . وأخشى أن أصرح بكلمة " انحلال " مع أننى لا أفهم أسباب ذلك . فأى فضيحة بالنسبة إلى " بروفيسور " أمراض عقلية خاصة بالأطفال أن يعكف ، بهوىً ووجد بالغيْن ، على صفحة الوفيات فى الجرائد ؟!

إن الجانب الطبى - والحق يقال - ليس هو الذى يستهوينى . فأنا لا أتبيّن ، بصورة منهجية ، سن الوفاة . أما بالنسبة لسبب الوفاة ، فلا يذكر إلا نادراً ، وفى أغلب الأحيان ، بصورة غير محددة . فمن المؤكد وأنا فى هذا مقتنع تماماً -

اعتمادا على عدة استشهادات - أن عبارة " توفى على إثر مرض طويل ومؤلم " التى تذكر كثيرا : لا تدل دائما على أنه السرطان !

إن ما يستوقفنى ، بل ما يبهرنى ، هو شكل إعلان الوفاة . كل إقليم له عاداته: فليس هناك تشابه بين إعلانات الوفاة فى جريدة " أخبار الألزاس " وإعلانات جريدة "جمهورية البيرينيه " . ومن الغريب حقا أن تتدخل مساحة قليلة جدا من الفروق الجغرافية فى تغيير شكل إعلان الوفاة بين جريدتين من إقليمين متجاورين . فهنا ، تذكر علاقات القربى مع المتوفى بعد اسم كل شخص من أقاربه المنشورين بالنعى ، وهناك تتجمع الأسماء بدون ترتيب بعد اسم المتوفى . وفى غير هذا وذاك، تتوالى الأسماء فى صمت . وفى إقليم ما، تبدو المراجع الدينية ، ولا توجد أبدا فى إقليم آخر.

فى شهر يناير الماضى ، قمت بتغيير قائمة الجرائد التى كنت مشتركا بها . وسأفعل نفس الشئ فى يناير القادم . وهكذا بعد ثلاث أو أربع سنوات ، سأقف على كل إعلانات الوفاة فى كل الجرائد الفرنسية . وفى النية أن أضيف للمشروع جرائد

البلاد الأخرى الناطقة بالفرنسية : كيف يعلنون عن موتاهم فـــى لوران ؟ و بروكسل ؟ وفى ميناء الأمير بجزيرة موريس ؟ أجل .. إن أمامى عملاً كثيراً.

وينبغى الاعتراف بأن جرائد باريس تبدو باهتة جداً فـــى مجال إعلانات الوفيات بالنسبة إلى جرائـــد الأقـــاليم ، مـــا عـــدا جريدتين تمثلان استثناءً واضحاً : الفيجارو ، ولوموند بصفـــة خاصة . إن هذه الأخيرة بالذات تحتوى على نظام أكثر تطـــوراً ، فهى تقوم بتنفيذ ترتيب صارم يحدد بدقة بالغة مكانة المتوفـــى . ولنبدأ من أدنى المستويات:

– الجزء الأول من النعى ، وهو المبلّغ كما هو من العائلـــة دون أدنى تدخّل من جانب تحرير الجريدة . وتلك حالة متواضعـــة جداً . لكنها على أى حال ، أفضل من الصمت المطلق ، الـــذى يعنى " الموت فى الموت " . فبهذه الصورة يبدو أن الشـــخص المتوفى قد استفاد من نشر اسمه فى " لوموند "!

– أعلى من هذا مباشرة : تأتى شخصية أكثر احتراماً . فـــهناك الملاحظات البيوجرافية المختصرة ، الموضوعة بين أقواس ،

وهى ترد بعد النعى ، لكنها تظل فى ذلك المكـــان المحـــدد الذى يفرضه الترتيب الألفبائى .

- مرتبة أعلى فى الاحترام : اسمك يُطبع ببنط أكبر ، ويكون عنواناً للنعى.
- وأفضل من ذلك : أن يحتلّ الترتيب الألفبـــائى المعــهود ، ويقفز اسمك إلى رأس صفحة الوفيات.
- وأخيراً نأتى إلى الموت المحترم بحق : حين يشير إعـــلان الوفاة ، بواسطة إحالات مختصرة بين أقواس صغيرة ، إلى مقال منشور فى مكان آخر من الجريدة.
- أما نهاية النهاية : فهى أن يتسرب اســـم المتوفـــى إلـــى الصفحة الأولى من الجريدة.

إن شهور السنة تلعب دوراً ملحوظاً فى هذا المجـــال . فالناس يموتون ، فى جريدة " لوموند " فى شهر أغســـطس . وأنا أحتفظ بنسخة من عمود خال تماماً مـــن أى إشـــارة إلـــى إعلان وفاة . وفى المقابل من ذلك ، تكثر الوفيات غالبـــاً فـــى شهر سبتمبر . ويبدو أن العودة الجنائزيـــة تصـــاحب العـــودة الثقافية.

لا شك فى أننى أتساءل أحياناً : أى مكان سـيحفظ لـى ، عند حلول الأجل ، فى هذا التصنيف الرائع . إننى لا أجرؤ علـى الطمع فى المقال المحرر ، وخاصة فى الصفحة الأولى . لكننـى على الأقل ، سأصبح عضواً فى الأكاديمية . وعندئذ فـإن قلـب الترتيب الألفبائى يبدو قريب الاحتمال . وسوف يكون من المخجل حقاً ألا أحظى بالإشارات البيوجرافية . والذى يعيش سوف يرى :

ريجـى ليكـرو

بلغنا نبأ الوفاة التى حدثت فـى ٧ سـبتمبر ١٩٨٥ فـى باريس للبروفيسور ريجى ليكـرو ، عضـو أكاديميـة الطـب ، والحاصل على وسام الشرف .

[مولود فى سان بريك ٢٥ إبريل ١٩٢٧ ، عين ريجـى ليكرو طبيباً ممارساً فى المستشفيات العقليـة للسـين ١٩٥١ ، وأصبح منذ سنة ١٩٦٩ أستاذاً للأمراض العقلية للأطفـال فـى جامعة باريس . كتابه " دراسة للتحليل النفسى – التربوى ، الطبى للمعتوه المتوسط " المنشور سنة ١٩٦٤ ما زال يسـتخدم حتـى الآن كمرجع للطلاب والأساتذة على السواء] .

" صدفة غريبة : قبل أسبوع واحد من وفاتـــه ، التـــى حدثت فجأة ، حصل البروفيسور ليكرو على وســـام الشـــرف ، كما انتخب عضواً فى الأكاديمية الطبية " (انظـــر : لومونـــد ، سبتمبر).



مدينــــة . . وامـــرأة

للكاتب الفرنسى : رولان جاكاى
مترجمة من الفرنسية

مساء الأربعاء ، وقبل رحيلـــه إلـــى نيويـــورك ، ذهـــب لمشاهدة فيلم (وودى ألان). وعندما خرج من السينما ، تمشـــــى طويلاً فى شارع الإيطاليين بباريس مفكـــراً فـــى تلـــك المدينـــة الشاسعة ، الدافئة ، والمقلقة إلى حد ما ، والتى سيتنزه فيها غداً لأول مرة فى حياته . لقد أجّل هذه الرحلة أكثر مـــن مـــرة ، لأن هناك مسألة كانت تقلقه : كيف ستقابله (فان)، التى أحبـــها منـــذ خمسة عشر عاماً ، فى قرية هادئة على بحيرة ليمـــان ، والتـــى تعيش الآن فى نيويورك . . كان هو أيضاً وحيداً ، ويقترب مـــن الأربعين . وفى المساء ، غالباً ما فكر فى موته ، لكنه كان يعـــد نفسه بأنه لن يموت قبل أن يرى فيلم (مانـــهاتان) ، وصاحبتـــه القديمة (فان).

كان يتساءل أيضاً : لماذا يحلم كثيراً بها ؟ لماذا تشبهها كل النساء اللاتى عرفهن بعدها ؟ لماذا كان سخيفاً معها لحظة الفراق ؟ إنها لم تغفر له قط ، وهو يعلم أنه على إثر محاولة انتحار منها ، ودخولها إحدى مصحّات الأمراض النفسية ، قد فقدها إلى الأبد . .

تذكّر كل هذا كحلم ثقيل ، ربما تزيله تلك الرحلة السريعة إلى نيويورك . ولأنه كان فى بعض اللحظات إنساناً رومانتيكياً ، فقد أقنع نفسه بأنه سيذهب ليلتقى فى وقت واحد بمدينة وامرأة ، بماضيه وموته . وفى لحظات أخرى ، كان يسخر من مراهقة أحلام يقظته ، ومن المجاملة التى عامل بها حياته ، والتى أراد منها أن يستدرّ الشفقة على نفسه . إنه – القارئ الوفىّ لنيتشه – كان يعتقد بأن التقوى هى أدنى المشاعر !

فى نيويورك ، نزل فى فندق (بلازا) . كان قد كتب منذ أسبوعين إلى (فان) أنه سيقضى فيها ثلاث ليالٍ ، وأنه يتمنى أن يلتقى بها . أما هى فلم ترد . كما لم يكن فى انتظاره بالفندق أية رسالة منها . وبعد أن استراح قليلاً ، تلفن إلى

بعض الأصدقاء . لم يجرؤ أن يُتلفن لها . كان يخشى ألا تكــــون موجود ، أو أن ترفض مقابلته . كان يشعر بأنه يمكن أن يمنــــح عدة سنوات من عمره لقاء سهرة واحدة تقضيها معه.

عندما كلمها ، سمعها تتحدث عن أنــــها كــــانت مشــــغولة جداً . وأنه يوجد فى نيويورك ، على أية حال ، أشياء أخرى أكثر إثارة من رؤيتها . ومجروحاً ، تردّد فى أن يردّ بنفس اللهجــــة . بل إنه خشى أن تضع السماعة ، لكنه استمر . . هو الذى كـــــان يرى أن كلاً من التواضع والإلحاح ضرب من الحماقة . وأخـــــيراً سمعها تلقى إليه بهذه الكلمات كصدقة : " تلفنْ لى يوم السبت بعد الظهر . . ربما تمكنت من أن أتغدى معك"

قبل أن ينام ، كتب فى مذكراته : " هل حقيقــــة أن (فــــان) هى التى تشغلنى ؟ ألا يمكن أن يكون ذلك الجزء من ذاتى الذى لم ينجح فى أن يتخلص منها ؟ تلك هى مأساة الحب الذى يحرمنــــا أحياناً بصورة نهائية من آلاف الأشياء التى نمتلكها ، ثم أضــــاف أنه سيكون مخطئاً لو لام (فان) على أى شئ . لأن كل ما حــــدث هو خطأى . عندما قطعت علاقتى بها ، تصرّفــــت نحوهــــا مثــــل وغد . إنها لم تغفر لى قط . ولم تسامحنى قط . يبدو أنها ســـتظل

تُكنّ لى الكراهية . وأنا أشعر على فقدانـــها بـــالندم . وهكـــذا نصبح متعادلَيْن .

فى اليوم التالى – الجمعة – ذاب فى أحشاء تلك المدينة الضخمة والهائلة التى أحبها من قبل. وقد فكر أنه إذا اضطـــر يوماً لمغادرة باريس ، فإنه سيجعل من نيويورك ملجأه . ولأنه شاهدها مئات المرات فى السينما والتليفزيون ، لم يشعر فيـــها بأية غرابة . لقد تسلّى ، مع ذلـــك ، بملاحظـــة مـــدى فقـــر أحاسيسنا وخطأها . وهكذا لم يندهش لرؤية التاكسيات تحمـــل اللون الأصفر كما لم يفاجأ بأن سيارات البوليس تجمـــع بيـــن اللونين الأزرق والأبيض .

السبت ، فى الظهر تماماً ، بعد أن تـــنزه فـــى الحـــى الصينى (تَشيْنا تاون) ، تلفن إلى (فان) . أعطته موعـــداً فـــى مطعم يابانى يقع فى الشارع رقم ٥٧ . وكما كـــان متوقعـــاً ، وصل هو أولاً ، وجاءت هى متأخرة . كان شـــعرها قصـــيراً ، بدون تلك " القُصّة " التى كانت تعجبه كثيراً . كـــانت ترتـــدى ملابسها بنفس الأناقة والتحفظ اللذين عرفها بهما من قبـــل . وأيضاً كما كانت من قبل ، راحت تدخن ســـيجارة بالنعنـــاع .

أما هو ، فقد كان متوتراً ، وغير مستريح . أحس بأنها عصبية ، ومشدودة ، غضبى ، ومحاطة بأسلاك شائكة غير مرئية . لكن ما أدهشه أكثر كان هو سماع صوتها : أجش ، عميقاً ، حسيا على نحو لا يقاوم . . أنصت إليها بقداسة ، كما لو كانت هى الموسيقى الوحيدة القادرة على أن تهدئه . . على أن تصالحه مع ذاته ، إلى حد أنه كان يفتقد معظم خيوط المحادثة . وعموماً ، فإنه كان دائماً لا يهتم بجلسائه الذين يخونون - بطريقة حديثهم ، ولهجتهم ، وحركات جسدهم - شخصياتهم الحقيقية !

تغدياً معاً فى المطعم اليابانى . وقد طلبت هى مشروباً ساخناً ، لاحظها وهى تشربه . كاد يجرؤ أن ينظر إليها. كان يشعر معها بشعور من الخجل الذى يحدث بين تلميذ وتلميذة فى مدرسة واحدة . لكنه بدأ يشعر بإحساس من الفرح لأنها نسيت ماضيها . ومع ذلك ، فكلما مضى الوقت ، راحت علاقتهما تصبح أكثر طبيعية ، وتقريباً متواطئة . وتبادلا بعض الاعترافات الذاتية. حدثته هى عن محاولاتها الثلاث فى الانتحار ، وعن وحدتها ، وعن شعورها بأنها لا تجد فى أى موضع المكان الذى يناسبها . أما هو فقد حاول أن يستعيد بعض المشاهد التى عاشها معاً ،

بعض الأفلام التى أحباها ، وخاصة (بييرو المجنون) لجان لوك جودار . لكنها أخبرته بأن ذاكرتها ضعيفـــــة ، وأنـــها تتذكـــر بصعوبة حبهما القديم . ثم بعد ذلك ، أخذت عليه أنـــه يعيـــش أكثر مما ينبغى فى الماضى . وبسرعة أجاب : " لكننى أجد فيه سعادتى الوحيدة " .

كان منتشياً من وجوده هنا ، وببساطة معـــها . ســعد كثيراً من رؤيتها أكثر عفوية ، وأكثر بساطة . ولم يندهش قــط عندما اقترحت عليه أن يتنزها فى الحديقة العامـــة . وهنـــاك تحدثا عن (بروست) ونظريته فى الحـــب ، وعــن (ســيوران) وانحطاط الغرب . بروست الذى قرأه لها بصوت عـــالٍ خـــلال أمسيات كاملة ، وســيوران الــذى جعلــه يكتشــف الحــاضر والماضى. وفى تلك اللحظة، اعترف كل منهما للآخـــر بحبـــه. وصرح بأنه قد حصل أخيراً علـــى روايـــة (فريـــتز زورن) : مارس، مضيفاً أنه – منذ كافكا – لم يقـــرأ شـــيئاً بمثـــل تلـــك القوة . .

قرب الغروب ، طلبت منه أن يصحبها عند بالدوكســـى، أحد محلات الموضة. وبينما راحت تخطو من جناح لآخر فـــى

المحل ، كان هو يراقبها . وسأل نفسه : هل كان سينجذب إليها إذا كان يراها الآن للمرة الأولى ؟ ولم يستطع إلا أن يرد بالإيجاب. وتساءل أيضا : هل لو كان تزوجها ، كما كانت هذه نيته من قبل ، يعتبرها الآن هفوة شباب يلزم التكفير عنها طوال العمر ، حسب تعبير فيلسوفه العزيز (شوبنهور) . إن أفعالنا - كما كرر لنفسه أكثر من مرة - عبارة عن ضربات زهر في ظلمة ليل المصادفة .

في أثناء صحبته لها إلى منزلها، حرص على أن يخبرها أنه مازال يحس بأنه مذنب في موقفه . وصرحت له حول هذه النقطة على الأقل: " أنا تغيرت . لقد طرحت عادة تغيير الآخرين لحساب مشكلاتي الشخصية . إنني أعتقد أن كل إنسان ينال في الحياة ما يستحقه . . " ورد بابتسامة ، عندما أصغى لها وهي تستشهد بعبارة مأثورة لابيكتيت الذي أرسله لها لحظة الفراق : " إن اتهام الآخرين بعذاباتي الشخصية لا يعني إلا الجهل . وفقدان الهوية الخاصة إنما يأتي من شخص بدأ يثقف نفسه . وإذن فلا ينبغي اتهام الذات أو الآخرين ، لأن هذا إنما يحدث من شخص

مثقف بالكامل " . وأضافت : " ألا ترى . . إننى لم أنس تماماً كل شئ . . "

كان الليل قد سقط من وقت طويل ، عندما وصلا أمام منزلها . وكان هو فى الوقت نفسه مرتاحاً ، وقلقاً . ماذا يفعل لكى يعود إلى ذلك الوقت الذى يجعلها فيه سعيدة . قالا : " إلى اللقاء " كأصدقاء قدامى . تردد فى أن يأخذها بين ذراعيه وأن يقول لها : " ابقىْ معى . لن نفترق بعد الآن . سنعيش منذ الآن أحدنا للآخر .. أحدنا بالآخر " ومع ذلك صمت . لأنه خوفاً من أن يُصدّ من جانبها كانت لديه تجارب كثيرة مشابهة ، علمته أنه كان بالتأكيد صادقاً ، فى اللحظات التى يقول فيها أمثال هذه الكلمات . لكنه كان فى الوقت نفسه يكذب . لأنه كان يحس بعطش إلى المغامرة ، وإلى عدم الوفاء . . كان يعرف عن نفسه أنه غير ملتزم ، لكنه وفىّ . . وفىّ للغاية. لأنه حتى لو أراد ، فلن يستطيع أن ينسى أقل التفصيلات الصغيرة التى عاشها مع النساء اللاتى أحبهن . ولم يكن يريد أن يختار . لم يكن يريد أن ينزعج . إن لم يكن حتى الآن . . فعلى الأقل . . للآن .

فى اليوم التالى ، قبل أن يغادر الفندق إلى المطار ، تلفن إلى (فان) لآخر مرة. اقتصر على أن يشكرها بصورة رسمية على قبولها أن تراه . ومع ذلك أضاف بلهجة مرحة أنه وجدها دائمة جميلة جدا ، مرغوبة جدا . . لكنه لم يجرؤ على أن يغازلها ، ولا أن يشعر بأنها ما زالت تهتم به . أما هى فقد طلبت منه أن يرسل لها كتاب (فريتز زورن) . وهكذا كما فكر : العلاقة بينهما لن تنقطع تماما ! فى مذكراته الخاصة ، كتب ملاحظة : " ماذا تعتقد فى حقيقة ؟ أى لعبة نلعبها ؟ يبدو أننى لن أعرف أبدا " .

فى الطائرة ، بعد أن تناول العشاء ، وشاهد (دون سيجل) فى فيلم (سجين الكاتراز) ، جاءته الرغبة فى أن يكتب لفان . . وفى مسودة خطاب ، راح يخط ما يلى:

" كما طلبت منى ، أبعث إليك بكتاب زورن . لكن حذار . فإنه ذرى. إن القارئ لا يخرج من قراءته غير مبال. وعندما تقرأينه سوف تفهمين على نحو أفضل لماذا كنت أتصرف بعنف فى شبابى . . بعنف ووحشية وحمق ضد السرطان الأخلاقى الذى يحكم قبضته على البلد الذى انسابت فيه طفولتنا ، والذى -

بصورة أو بأخرى – قد أصابنا جميعاً . إننى متلهف لسماع ردّ فعلك . .

سوف أصل الآن إلى نقطة لم أشأ أن أثيرها خلال لقائنا الأخير . إذا كان قد تحقق لى السرور فى رؤيتك – أكثر من السرور : الحاجة . . فإنما هذا لأنك أكثر حضوراً فىّ من أى امرأة أخرى عرفتها حتى الآن . إننى بالتأكيد أعيش فى الماضى . لكننى بصفة عامة أعتبر أنه قد مضى بصورة نهائية. معك بالعكس : لدىّ إحساس بأن شيئاً ما يمكن ، بل يجب أن يقربنا مع السنين أكثر فأكثر . من يدرى . . حتى بعد عشر سنوات . . عشرين . . أو ثلاثين سنة . سوف تقولين : " أنت تسخر " ربما . . لكننى أحلم ببساطة بأجمل هدية قدمتها لى الحياة ، وهو أنت . . وأودّ بكل طاقتى أن أكون أهلاً لها . وبدون شك أنت على حق : ليس لكل إنسان إلا ما يستحقه . .

إن شعورى بذلك الإحساس الشنيع وهو أننى أصبحت لا مبالياً (لكن ليس كلية، وهذا يمنح الأمل ، بعض الأمل) يجعلنى أتأمل نفسى جيداً عندما أسأت إليك كل هذا الوقت الطويل . إننى حريص فقط على أن أقول لك هذا . وذلك أسهل عن

طريق الكتابة ، فإنه يصعب على أمامك أن أقوم بدور . . وقد كنت دائما إنسانا غير حصيف . . هل تذكرين مثلا عندما خرجت من المدرسة ، وسألتك عن أختك ، فى الوقت الذى كانت فيه عيناك مركزتين فىعينى . . إنه أنت وحدك التى تعتبر هذا اليوم !

حسنا . . لن أتعبك أكثر من هذا بأغراض تعتبرينها خارج الموضوع .

مع خالص مودتى

"ملحوظة " فيما يتعلق بكتاب زورن ، يمكنك اهمال مقدمة موشج ، فهى لا تضيف أى شئ . بل على العكس " .

وفى اللحظة التى أنهى فيها مسودة هذا الخطاب ، أحس بأنه لن يرسله إلى (فان) . .

بدأ يحس بالراحة عندما رأى انبلاج الصباح من الطائرة . وبالمصادفة ، وربما من قبيل المعجزات ، انسابت فى السماعة التى وضعها على أذنيه – بعد أن تخير إحدى القنوات – موسيقى تريستان وايزولد لفاجنر . . قطعته الموسيقية المفضلة . وهنا

أحس أمام كل المخلوقات بشعور العرفان . ما يخبئه له المستقبل مجهول . لكنه كان سعيدا ، لأنه عاش حتى تلك اللحظة . .

وقد مرت به ساعات أمل ويأس ، ورأى ليالى ونهارات ، واعتقد ولعن . . لكنه أدرك فى تلك اللحظة أنه لن يصبح بعد الآن وحيدا . كان يكفيه فقط أن ينتظر . وقبل كل شئ أن يتعلم أن يعيش الحياة فى صداقة ، ثم فى انسجام مع ذاته.

دون شك ، كل من الإرهاق والانفعال أراح روحه النقدى وأضاء بصيرته . إنه الآن واع بنفسه . لكنه كان يعلم أن هذا كان ضروريا . كما أنه من الضرورى وجود الرفض والإيجاب ، الظلمات والنور . .

فى صباح الاثنين ، وفى طريقه إلى الجريدة التى يعمل فيها بباريس ، مر من جديد على السينما التى تعرض فيلم (مانهاتان) .انفلتت منه بسمة تواطؤ للبطلين (ديان كيتون) ، (وودى آلان) . وقال لنفسه إنه بعد هذه الرحلة السريعة فى

نيويورك يمكنه أن يكوّن مادة قصة . وكتب فى نفس المساء . لم يشعر بأنه كتب قط بمثل تلك الحيوية . إن معظم الكتابات خيانة . وخيانة للنفس .



القــــرار

بقلم : د. حامد طاهر

انصرف المشيعون . لم يلتفت إلى قبره سوى زوجته ، وابنه الصغير . أما ابنته ، فقد استندت إلى ذراع زوجها . وأسرعت أخته الكبرى لتلحق بموعد الطبيب . وتفرق أصدقائه الثلاثة بعد أن قال أحدهم : موعدنا اليوم بعد العزاء فى المقهى لنحيى ذكراه ، على طريقتنا الخاصة . وآخر من غادر المكان هو المقرئ الضرير . كان مبتسما لأنهم أرضوه بمبلغ كبير . .

الآن فقط ، بدأ يستريح . منذ مات : لم يكن يدرك أن إجراءات دفنه سوف تطول إلى هذا الحد . . الصراخ ، المغسلون ، شراء الكفن ، شهادة الدفن ، دهشة أهل الحى ، وحزنهم على وفاته : عجيب ! عم إبراهيم الكواء الذى لم يكن يستلطفه قط بكى . . والمعلم زكريا صاحب الجراج ، الذى لم يركن سيارته لديه قط أطفأ سيجارته عند مرور النعش ، وظل صامتا وشفتاه تتحركان بآيات من القرآن الكريم . ومن يدرى؟

ربما كانوا يفكرون فى أنفسهم . هو أيضاً ، لم يكن يفكر جدياً فى أنه ذات يوم قريب سيموت . ومع ذلك ، فقد كان منظر الجنـــازة يطرح عليه سؤالاً ملحاً : ماذا يحدث للميت وهو فى النعش ؟ هل يفقد الإحساس تماماً ؟

سمع ذات يوم خطيب المسجد يلقى حديثاً بعد العصر عــن عذاب القبر وضغطته، ومنكر ونكير . . ويومها كاد يسأله عـــن الذين يموتون غرقاً أو احتراقاً . . لكنه صمت ، حتـــى لا يُحـرج الشيخ . وقرر أن يقرأ فى هذا الموضوع بعض الكتب ، لكنه لـــم يفعل .. ما أكثر الأشياء التى كان يود أن يفعلها ! الآن فقط عرف كل شئ . ولا يمكن أن يقول بأنه كان سعيداً تماماً بتلك اللحظـات التى قضاها فى النعش . . لقد ودّ لو وضعوه فـــى سـيارة ، أو جرته عربة بحصانين . . الواقع أن اهتزازات الحـــاملين كـانت تؤلمه ، ترجّه أحياناً بعنف . . تفقده حلم الراحة الأبدية التى كـان يتوق إليها منذ فارق الحياة . ومع ذلك فقد كان حريصاً علــى أن يظل متيقظاً طوال الوقت ، حتى يعيش تلك اللحظات التى تخيلـــها على ألف صورة من قبل-إنها الآن حقيقة : الجسد ، إنـــه يُحـسَ به . . لم يفقده بعد . . حاول أن يحرك أصـــابع قدميـه، لكنــه

اصطدم بشدة الرباط : من قال إن النفس تغادر البدن ؟ جــــرّب مرة أن يتقلّب على جنبه ، فكادت خشبة النعش تسقط من فوق الأكتاف : سمع من يقول بصوت عال : " لا حول ولا قـــوة إلا بالله " قرر ألا يفعل ذلك مرة أخرى . كان الجو بارداً . حمد الله على أنه لم يمت فى الصيف: الشــــمس الحارقـــة ، والـــتراب الساخن ، والعرق ، ورائحة العفن . . ثم تبّرم المشيّعين ! أمـــا اليوم فالنسيم بارد ولذيذ ، ورائحــــة ورود وخضـــروات غـــير مرئية تنتشر فى أرجاء المدافن . . ولا شك أن الطقـــــس قـــد انعكس أثره على وجوه الأهل والأصدقاء . . فغـــــابت الكآبـــة منها، وحلّ محلها قدر لا بأس به من الرضا والاستســــــلام . . وهو يعتقد أنه لولا مشاغلهم التى يعرفها جيـــــداً لظلـــوا إلـــى جواره أطول فترة ممكنة، ومـــع ذلـــك فقـــد أحســـنوا صنعـــاً بانصرافهم . .

الآن . . لا أحد . سوى صبى صغير يتبعه كلب كبـــير . اقتربا من القبر المرشوش بالماء ، انحنى الصبى على علبـــــة سجائر فارغة ، بينما أسرع الكلـــــب يتشـــم الأرض . آه . .

هزّ الكلب ذيله، ودار حول شاهد القبر. كاد يبـــول عليـــه، لكـــن الصبى ابتعد ، فلحق به الكلب مسرعاً . الحمد لله . لم يفعلها .

لماذا لم يضعوا على القبر زهوراً . . لكن ماذا يهم ؟ القبر المجاور ذبلت وروده ، وبعضها يبس وتحول إلى هشيم كئيـــب . من يسكنه ؟ استولت عليه رغبه حادة فى التطفل . . حـــاول أن يفتح عينيْه . لم يستطع . لكن منظر القبر تمثّل له بالكامل : كانت هناك ثلاث جثث . أحدثها فى اليسار لامرأة فى الثلاثين . . ليست بها إصابات . ما سبب الوفاة إذن ؟ وفجأة وقف شعر رأسه حيـــن شاهد دودة زرقاء فسفورية تقترب من رقبتها وتدخل من فتحـــة صغيرة . " هِشْ " : صرخ لإبعادها . لكنـــه لـــم يســـمع لكلمتـــه صوتاً . والدودة لم تتوقف . نظر حوله . كان هناك هيكل عظمـــى بدون كفن . وبالتدريج راح يسقط عليه الضوء من ثقب صغـــير فى سقف القبر . شغله جداً صوت ذرات التراب المتساقطة وهـــى تنهال على كفنه . . أى عمل هذا الذى يفسد ولمّا ينقـــض علـــى إتمامه سوى لحظات ؟ ! هل ينسدّ من تلقاء نفسه ؟

كان فى حاجة شديدة إلى أن ينقطع عن العالم الخـارجى ليبدأ رحلته الجديـدة التـى طالمـا تـاق لمعرفـة أسـرارها المخبّأة . . لكن الخوف عاوده فأفسد عليـه لـذة الاستمتاع بوحدته : كان أخشى ما يخشاه أن يمر كلب أو قـط فتجذبـه رائحة الرُفاة . . وبدأ يحسّ فعلاً بأنه ضعيف جـداً ولا حـول له . . ولم يمض وقت طويل حتى انسدّ الثقب ، وشمل القـبر ظلام شامل وصمت مطبق . . عندئذ بـدأ يحـس بـأن شـيئاً سيحدث . . أحداً يقترب . . وفجأة علا صهيل خيول مختلطـاً برنين أجراس وصفارات إنذار ، ودخل رجلان : (طويـل) و (أطول) : لكنهما يرتديان زياً موحداً : بُرنس مصنوع من كتان أبيض به خطوط زرقاء متعرجة . (الأطول) يمسك بعصـا ذات مقبض أنيق ، و(الطويل) يتأبط ملفاً بأوراق ملونة . .

ومن العجيب أن وصولهما على هذا النحو لم يلق فـى نفسه الفزع . بل على العكس ، أحسّ بارتياح مَنْ كان ينتظـر ضيفاً ، ولكنه لا يعرف هويته . وبدا (الأطول) هادئاً ، ورزيناً ، وكأنه قاض عادل . أما (الطويل) ، فأكثر عصبية ونشـاطاً . . قال الأطول ناظراً ناحية الثقب :

– هذا السقف غير متين

– لكنه أمتن مما زرناه فى الصباح

– نعم . . لكنّ هنا ثقباً . .

– ماذا نفعل فى إهمال الأقارب ؟

– حسناً . . فلننظرْ فيما خلّف صاحبنا ؟

فتح الطويل ملف الأوراق الملونة ، وبحركة آلية استخرج عدة أوراق : خمسة أو ستة – وراح يقرأ :

زوجة فى الخامســـة والأربعيـــن ، ابنـــة متزوجـــة فـــى العشرين ، ابن فى الثالثة عشرة ، وأخت كبرى تجاوزت الستين .

استوعب (الأطول) ما قيل بانتباه شديد ، ثم سأل :

– وماذا عن والديه ؟

– ماتا منذ خمسة عشر عاماً . . الأب بعد الأم بشهرين .

بدأ يشعر بالخوف . كل المعلومات التى يتبادلانها دقيقة للغاية . والطويل يبدو كأنه على علم كامل بكل التفاصيل عن حياة العائلة ، وتساءل :

– هل يعرف عنّى نفس القدر ؟

وانتظر . توقّع أن يسألاه : ما اسمك ؟ وما دينك ؟ لكنهما لم يفعلا . . ولماذا السؤال والملف الذى بأيديهما يحتوى على كل شئ . ظلاّ يتحدثان عن أفراد العائلة . وأدهشه أن يسمع عن ابنته بعض الأسرار التى لم تقلها له زوجته . وفجأة قال الأطول :

– حدثنا عن علاقته بجيرانه

– متحفظ . . لم يكن يهتم كثيراً بما يحدث لهم !

ظهر الاشمئزاز بوضوح على وجه الأطول ، فدب الخوف بصورة أكبر إلى قلبه . . واستمر الطويل :

– وضع لنفسه مبدأ وحاول تطبيقه : " لا يختلط كثيراً بهم حتى لا تفسد علاقته معهم "

ابتسم الأطول ، فتنفس الصعداء . علم أنه يقف فى صفه ، لولا تلك المنغّصات . ودّ لو انتقل الطويل إلى نقطة أخرى ، وحلّت عليه بكآبة صورة تلك العلاقة العابرة بزوجة أحد الجيران . . لكن ذلك كان قبل أن يتزوج . كارثة لو تُليت الآن . لكنه لم يكن البادئ . فقد تمت عملية إغوائه على نحو ماكر . . صحيح أنه كان يشتهيها ، لكنه لم يفعل أكثر من النظر ، والصمت . . ومن العجيب أنهما جاءا بنتيجة . . آه .. ليتنى ما استسلمت . لكنها هى التى مهّدت كل شئ . كانت خبيرة ، ومحنكّة : وكل ما حكته له عن مغامرات أخت زوجها مع عشيقها كانت تتوقع أن يفعله معا . . لكن : ألا يُحسب له أنه هو الذى قرر قطع العلاقة . . وغادر الحى كلّه مضحياً بمزايا عديدة. اللعنة على تلك اللذة المحرمة . كانت خاطفة ، ومحاطة بأسلاك شائكة جعلته يزهد فيها . . " يزهد فيها " أم يخشى منها " آه . . هما الآن سواء .

وسمع الطويل يقول :

– وهنا علاقة بزوجة أحد الجيران !

واتتبه الأطول سائلاً :

– كم كان عمره حينئذ ؟

– تسعة عشر عاماً . . ثم أضاف بتأكيد مَنْ يريد أن ينبّه إلى حقيقة :

– بعد البلوغ بست سنوات !

هز الأول رأسه فعلم أنه ذنب لا يغتفـــر . ولأول مـــرة حاول أن يتدخّل ليدافع عن نفسه ، ويقـــول إنـــها هـــى التـــى أغرته ، وأنه هو الذى قطع العلاقة . . وأنـــه كـــان بإمكانـــه الاستمرار . . لكنه وجدهما ينتقلان بسرعة إلى نقطة أخرى :

– وأقاربه ؟

سأل الأطول ، كما لو كان يريد أن يجمع بعض الأدلـــة لصالحه .

– فى البداية ، كان أبر العائلة . كان يحرم نفسه ليُسعد عمة ضريرة ، أو خالاً معوزاً . . تابع ابنة أخته برعايته المالية حتى أكملت تعليمـــها ، وســـاهم – إلـــى حـــد مـــا – فـــى

زواجها . . لكنه بعد أن تزوج ، تحوّل إلى إنسان مختلف :
ابتعد عن الأقارب ، واعتذر أحياناً عن مقابلتهم . ولهذا فإن
معظمهم لم يشهد جنازته . وقال البعض : " كلب وراح " !
طأطأ (الأطول) رأسه . لم يجد ما يجيب به . لعله كان يقارن
بين الأدلة . اقترب منه . لمس صدره بطرف عصاه، فانسابت
فى جسده قشعريرة وارتباك . تمنى لو كانت هناك مدفأة :
كانت ليالى الشتاء هى أحب الأوقات إليه : يقضيها مع زوجته
وطفليه . حتى بعد زواج ابنته كان يفضّل أن يدعوها وزوجها
إلى العشاء فى ليالى الشتاء . زوجها ولد مجامل جداً، وهذا
ما كان يخيفه . ماذا سيفعل الآن معها فى غيابه ؟

عموماً البنت شاطره ، وهى أذكى بكثير من أمها . .

سمع الأطول يسأل :

– وعلاقته بأبنائه ؟

– طيبة . . يعاملهما كأصدقاء .

– وزوجته ؟

آه . . هنا المأزق . حاول أن يقـــول لــهما إن فــترة انفصالى عنها طالت ثلاث سنوات ، لم يكن ورائها فى الحقيقـــة سوى الملل.

لكنه كان يدرك أنهما سيعرفان الحقيقة . . وأحس أنـــه غير قادر على الكلام ، فاستسلم للإصغاء . . ماذا يهم ؟

– إنها لم تغفر له قط علاقته بفتاة تصغره بعشرين عاماً . .

اهتم الأطول ، وراح يخطو بهدوء حول جسده المسجّى، وهو ينكت الأرض بعصاه الأنيقة . .

وتمثل له وجه (نشوى) بحيويته وشـــقاوته . . لـــولا رفض عمها الغبى لكانت قد أصبحت زوجته ، ولم تعتـــبر الآن خطيئة ثقيلة فى حسابه . . كانت أمها موافقة على الـــزواج ، لكن العم المتشنج أصر على الرفض : فارق بعشرين عامـــاً ! ! هى التى جعلته يأكل الآيس كريم فى الشارع ، ويركب درّاجـــة فى القناطر ، ويصعد البرج لأول مرة فـــى حياتـــه . . كـــانت متدفّقة ، والحياة معها أغنية سريعة الإيقاع ، لذيذة النغـــم . . لكن عمها لم يفهم سرّ اللقاء الذى جمعهما . . صحيـــح أنـــها

كانت تفتقد حنان الأب لكنها كانت تشعره برجولتـــــه . . الجـــرح الذى فوق حاجبه كان من اصطدامه بباب الشقة التى عاشا بـــــها أحلى ساعات عمره فى الإسكندرية . . غضبت فأســــرع خلفـــها فارتطم ، فأسرعت لتضع رأسه فى حجرها ، وتضغط على الجرح بشفتيها . . كان ينظر فى وجهها فيشعر أن الدنيا قـــد ابتســمت له . . لكن السعادة لم تدم . . فقد جاء رفـــض العـــم ، وســـعى الأسرة لإصلاح ذات البين مع زوجته . . وكان مـــن المؤلـــم أن يتابع أخبار نشوى من بعيد ، وهى تقبل زوجاً أصغر منــــه ، ثـــم تنجب وتصبح أماً جميلة ورزينة وأكثر هدوءاً . .

سأل الأطول :

– هل حضرت زوجته الجنازة !

– كانت تبكى بحرقة . . إنها تحبه بالفعل

نظر الأطول فى السقف . ثم قال :

– لقد انسدّ الثقب تماماً !

لم يعقب الطويل بشئ ! . لكنه أخرج ورقة فارغة تماماً واستعد ليكتب فيها : يبدو أنه القرار . . لكن حسبكما ! فأنا لـم أدافع عن نفسى . . هناك الكثير مما يمكن أن أقوله . . ولماذا تقتصران فقط على هذه الأمـــور ؟ ! أيــن النوايــا الطيبــة ، والمشاعر الإنسانية ، والأفكار البنّـــاءة ؟ ! أيــن المحـــاولات الجادة فى مجال العمل ، والإخلاص فيه؟ ! وعندمـــا وجدهمـــا ينتهيان تماماً من " حالتـــه " حـــاول أن يصـــرخ ، يقـــول أى شئ . . لكنه أدرك هذه المرة أن جسده لا يستجيب له . . يبدو أنه فقد السيطرة تماماً عليه . . وأحس باختناق ، وعطـش . . . ودخان كثيف يملأ جنبات القبر . . وراحت تقترب من ســـمعه ضجة عجلات قطار ، وصخور ضخمة تسقط فى بئر . . حـــاول أن ينظر فى الورقة الأخيرة لكن أجفانه لم تنفرج . تذكّر الـدود الذى يُفرغ الجمجمة من اللحم . . ظلت الورقة فارغة ، والقلـم الغليظ علـــى أول ســـطر . . وزاد خوفـــه مختلطـــاً بـــالضيق والضجر، وكاد يقول لـــهما : اكتبـــا أى شـــئ ! وراح ينتابـــه الصداع . . عجيب ! نفس الصداع الذى كان يحسّ بـــه وهـــى حىّ : أى فرق إذن ؟ ! فى مثل تلك الحالة ، كانت قدرته علـــى الاحتمال تتلاشى إلى الصفر . . كان يلقى بأى عمل فـــى يـــده

ويسرع إلى المنزل ، مستلقياً على وجهه ، دافناً رأسه فى المخدة الناعمة . . وعلى الفور ، تسرع زوجته بعمل كوب من عصـــير الليمون فيخفف مـــن حدتــه دون أن يقضـــى عليـــه تمامـــاً . . الأسبرين، وكل المــــهدئات كـــانت ممنوعـــة بـــأمر الطبيـــب . . " اللعنة . . اتركانى الآن للحظات ، وعوداً بعد قليل . . "

ظل القلم فى موضعه من أول السطر فى أعلـــى الورقـــة الفارغة ، ولون الورقة يتحول مـــن الأزرق إلـــى الأحمـــر إلـــى الأصفر . . كما يحدث أحياناً فى شاشة التليفزيون . . مـــا اســـم فيلم الأوسكار هذا الأسبوع ؟ إنه يذكر أن فيه ممثلة يحبها ، لكنه واثق من أنه أضاع ســـاعات كثـــيرة أمـــام التليفزيـــون بـــدون جدوى . . هذا الجهاز لا يُعلِّم شيئاً . . مجـــرد تســـلية فقـــط . . أبداً . . إنه يشغل وقت الفراغ ، ويحول بين الإنسان ونفسه . .

حاول أن يفتح عينه ليرى ما فى الورقة ، لكن عينه ظلـــت مغمضة ، ومع ذلك، فهى تبصر ، وتذكّر الآية : " وكشفنا عنـــك غطاءك فبصرك اليوم حديد " .

حسناً . . إنه الآن يرى كل شئ بوضوح : يرى أمامه ، وخلفه ، وعن جانبيه . . لمـــاذا يحـس إذن بالحاجـة إلـى النهوض . . ظل مستسلماً وبدأ الصداع يخف . . ليتـه كـان يحفظ سورة " يس " حتـى يقرأهـا الآن . . أليسـت " قلـب القرآن " ؟ لم يقدر أن يستذكر سوى " الفاتحة " و " قل هو الله أحد " . . وتمنى لو كـان أوصـاهم بوضـع مصحـف إلـى جواره . . كان من السهل أن يقرأ منه حتى وهو مغلق . . فى آخر لقاء مع (نشوى) أهدته مصحفاً أنيقاً ظل محتفظاً به إلـى جوار سريره . . وعندما سألته زوجته قال إنه اشتراه . . لـم يبدُ أنها صدقت ، لكنها استحسنت وجوده إلى جواره . . كـان يقرأ فيه أحياناً ولا يغلقه إلا عندما تشتد على مخيلته صـورة (نشوى) . . كيف تجتمع الدنيا والآخرة ؟

الرجلان لم يعد لهما ملامح . ذابا فى دخـان أبيـض ، ورويداً رويداً هدأت ضوضاء كانت صاخبة . . ولم يعد يسـمع إلا صدى صلصلة أجراس بعيدة ، ونباح كلب متقطع . . الثقـب فى أعلى القبر عاد من جديد يتسع . . ومن فترة لأخرى ، ينفذ منه شعاع حاد من أشعة شمس العصر . . يبـدو أن الـتراب

المبتل قد جف ، لأن الغبار راح يصيب أنفه وحلقه بجفاف شديد . . أحس بالحاجة إلى شربة ماء . . وتذكر (قربة) عم مسعود السقا بجوار السيدة زينب . . كانت شربة الماء لديه تعدل كل مرطبات الثلاجة . . وكثيرا ما أغضب زوجته بصراحته في ذلك . . كانت تقول إن القربة متسخة ، والكيزان تلوثها العامة . . لكنه كان يحس لها بطعم خاص ، ويسعده أن يشم فيها رائحة الزهر القوية . .

لماذا لم يسأله الرجلان عن الصلاة ؟ صحيح لم يؤدها بانتظام ، لكنه كان شديد الخشوع فيها . أما صلاة الجمعة فكانت ضرورية حتى يقطع الألسنة . أما الصوم فقليلا ما شرب فى نهار رمضان دون أن يخبر أحدا . . كان يتجه إلى الله فى صدق ، ويقول : " أنت وحدك الذى تعذرنى "

فى العام الذى نوى فيه الحج ، وكان قادرا ، حل نظام " القرعة " . . لم يخرج اسمه ، ومتى خرج اسمه فى مسألة حظ . . عندئذ أدرك أن الحج ليس مكتوبا له . وحين عرض عليه أحد المعارف بوزارة الأوقاف أن يساعده فى هذا الموضوع كانت الرغبة فى السفر إلى مكة قد انطفأت . . وحل محلها زهد

شامل فى كل شئ . . وبالمصادفة قرأ عن الحـــج الروحـــى : طواف الروح بالعرش والإنسان فى مكانه . . ويذكر أنه قـــرر أن يخوض تجربة صوفية ، لكنه لم يستطع أن يســـتمر فيـــها لأكثر من عدة أيام!

كان يعتقد دائما أنه إنسان صالح . لا يؤذى أحـــدا . ولا يحب أن يوذى أحد أمامه . . أضاع على نفســـه كثـــيرا مـــن الفرص ، لأنه ناصر الحق . . أو ما رجح أنه الحق . .

كان دائما يعيش خارج بيئته . لم تشـــده قـــط مظـــاهر الترف المادى . وكثيرا ما نشبت بينه وبين زوجتـــه خلافـــات حادة حول أثاث المنزل . . هى تقيم وزنا لاعتبارات الضيوف ، وهو يرى أن الضيوف تزور أهل المنزل ، وليس الأثاث . . لم يدرك أنه كان على خطأ إلا حينما استعد لاستقبال أهل خطيـــب ابنته . . كانوا يتفحصون كل شئ . . مـــن الســـجاجيد حتـــى النجف : مظاهر فارغة ، وناس سطحيون . . لقد ربى ابنتـــه على احتقار الزيف ، وهى مثله صريحة . . بـــالأمس ســـمعها تتهامس مع أمها فى المطبخ . . أدرك على الفور أنها تشـــكو لها من زوجها : الولد طيب، ولكنه عصبى قليلا . . لا يهم . .

فهى التى اختارته ورضيت به . . لهذا فهو يتركها مطمئنا إلـــى أنها قادرة على حـــل مشــكلاتها بنفســـها . . أمـــا ابنـــه فـــهو المشكلة . . لكن ماذا يهم الرسوب مرة أو مرتين . . هو نفســـه رسب ، لكنه ما لبث أن استعاد توازنه ، وواصل النجـــاح حتـــى التخرج .

عاد صوت الطويل واضحا :

– ما تقترح أن نكتب ؟

أخرجه السؤال الحاسم من ماضيه : نسى أولاده وزوجته وكل المشاكل الماضية . . المهم الآن هى اللحظة الحـــاضرة . . إما إلى جنة وإما إلى نار !

وتذكر أنه سمع ذات يوم حديثا نبويا يقول إن رجلا فاسـقا دخل الجنة لأنه سقى كلبا عطشانا كان مشرفا علـــى الـــهلاك . . لكنه مع الأسف لم يلق مثل هذا الكلب طيلة حياته . . ومع أنـــه كان واعيا برمزية القصة فى الحث على عمل الخير . . إلا أنه لم يعثر فى ذاكرته على أى حادثة شبيهة بساقى الكلب !

تمنى فى تلك اللحظة بالذات لو أنه بدأ حياته من جديد . . إذن لصحح الكثير من أخطائه . . وتساءل : لماذا لا تتاح للإنسان فرصة أخرى ؟

إنه لم يفعل شيئا يأباه ضميره . كما أنه لم يجبر نفسه على عمل لم يهيأ له سلفا . . كان يتقن كل عمل يسند إليه . . وعلى الرغم من لوم أسرته له بأنه لا يسعى للمغامرة . . فإنه كان يحسب النتائج ، ويرى أن الناجحين فى الحياة يصلون فى إحدى المراحل إلى نقطة قريبة من الفشل ! كان دائما يسأل : وماذا بعد النجاح ؟ فلا يجد إلا الوحدة ، والبرودة ، وغيرة الآخرين . . وكلها كانت تملأ نفسه بالخوف والإحجام .

من جديد سمع الأطول يقول :

– الواقع أن موقفه محير . . كفة السيئات أثقل . لكن هناك بعض الحسنات التى يمكن أن تؤخذ فى الاعتبار . .

أحس أنه ضاع . . هو الذى اعتقد أنه بنواياه الطيبة يستحق الجنة ، يفاجأ الآن بأنه يحاسب على الأعمال فقط . . لكن هذه الأعمال تصدر عادة عن دوافع ، وتحركها أهداف ، ويصحبها قصد ونية . . أليس لكل هذا اعتبار ؟ !

اختلس النظر إلى وجه الأطول . فوجـــده أكـثر تجـهما وعبوسا ، ومع ذلك فهو لا يشك فى عدالته . . وانتهى به الأمـر إلى حالة من الاستسلام الكامل : فليكن أى قرار!

واتضحت أمام عينيه أبعاد الورقة بالكامل : راح (الطويـل) يحرك فوقها القلم الغليظ ، فترتسم تحته دوائر ومثلثات . . هكـذا كان يفعل فى اجتماعات مجلس الإدارة التى لم يكن يدلى فيها بأى رأى . . فى أول اجتماع ظل مشدودا طوال الوقت ، ولكنـه مـع كثرة الاجتماعات وتفاهة ما يدور فيها تعود أن يخطط فى الورقـة التى أمامه دوائر ومثلثات . . وعندما شاهده جاره قال له :

- إن هذه الرسوم تدل على حالته النفسية . .

لم يصدق فهى ليست أكثر من "تغبشة" لقضـاء الوقـت ، والهروب من الملل . . وربما لمحاربة النعاس !

كان الرجلان مازالا واقفين فى حالة من التردد . . وطـال الوقت إلى حد أن قال لنفسه : أليس وراءهما أحد سواى ؟ ! لكن الأطول رمقه بنظرة ذات معنى ، أدرك منها أنه عرف مـا يفكـر فيه . . أحس بحرج شديد !

قال الطويل :

- نكتبه فى أدنى درجات الجنة ، بعد أن يقضى جزاءه فـــــى الجحيم ؟ !

- لكنه لا يدخل تماما فى تلك الطبقة . .

- إذن نعلق حالته . . حتى الحشر ؟

- يبدو أن هذا هو ما سأقرره بالفعل .

وانصرفا ! !

الفهرس

من المؤلفات الأدبية

للدكتور حامد طاهر

- ديوان حامد طاهر ١٩٨٥
- ديون قصائد عصرية ١٩٨٩
- ديوان النباحى

(ديوان متخيل بكامله من الشعر العربى القديم) ١٩٩١

- ديوان عاشق القاهرة ١٩٩٢
- الطواحين (قصيدة فلسفية طويلة) ١٩٩٩
- نبش الذاكرة ٢٠٠٠

تحت الطبع :

ثلاث مسرحيات شعرية:

- دوريش السقا
- أربعة رجال فى خندق
- الأشجار ترتفع من جديد

رقم الإيداع	٢٠٠٠/١٨٧٣٦
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977-241-336-1

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ت : ٥٨١٧٥٥٠